بارتولد

تاريخ الحضارة الاسلامية

١

تاريخ
الحضارة الإسلامية

تأليف

ف . بارتولد

نقله من التركية إلى اللغة العربية

حمزة طاهر

الأستاذ المساعد للغة التركية بكلية الآداب

وقدم له الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام بك

الطبعة الثانية

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

للدكتور عبد الوهاب عزام بك

١

كتاب فى تاريخ الحضارة الإسلامية كتبه فى اللغة الروسية المستشرق بارتولد وتُرجم إلى التركية مرات . ونشر الترجمة التركية الغربية الأستاذ العلامة محمد فؤاد كوپريلى وكتب له حواشى قصيرة كما ألحق به أبحاثاً مطولة ترمى فى جملتها إلى تبيين نصيب الترك فى الحضارة الإسلامية .

وقد استشارنى صديقى وزميلى الأستاذ حمزة طاهر مدرس اللغة التركية بكلية الآداب فى نقل الكتاب إلى العربية فاستحسنته وفرحت به فسارع إلى ترجمة الكتاب ؛ وبعض الحواشى المختصرة التى علقها عليه الأستاذ محمد فؤاد وترك الأبحاث المطولة الملحقة بالكتاب وقد زيدت حواش قليلة فى الكتاب ؛ فكل حاشية ليست متبعة باسم محمد فؤاد فهى بينى وبين الأستاذ حمزة . وقد أثبت المترجم التاريخ الهجرى ووضع بين أقواس التاريخ الميلادى ، وقد اقتصر عليه المؤلف .

وليس هذا أول فضل لهذا الأخ الفاضل فى النقل من التركية إلى العربية. فقد نقلنا معاً منذ عشرين سنة كتاب اتحاد المسلمين الذى ألفه جلال نورى، وترجم هو منذ سنين رواية طارق بن زياد التى كتبها شاعر الترك الأكبر عبد الحق حامد — وقد تأخر نشرها — وهو يترجم كتاب « بابرنامه » الذى كتبه ظهير الدين محمد بابر مؤسس الدولة التيمورية فى الهند، وهو سيرة ممتعة عجيبة كتبها لنفسه ملك يُعد من عجائب التاريخ طموحاً وإقداماً وصبراً.

ولعل الجامعة تيسر نشر هذا الكتاب عما قليل[1].

٢

قسم بارتولد كتابه إلى مقدمة وستة فصول: الشرق المسيحى ومكانته فى تاريخ الإسلام — والخلافة ومبدأ الحضارة العربية — وبغداد وازدهار الحضارة العربية — والحضارة الإيرانية — وفتوح المغول وتأثيرها فى الحضارة الإيرانية — والعالم الإسلامى بعد القرن الخامس عشر.

ولم يرتب بحثه على العصور بل على الأمم. ولكن خطة البحث انتهت به إلى الترتيب الزمانى؛ فقد رفع العرب لواء الحضارة وهدوا الطريق

(١) بعد كتابة هذه المقدمة للطبعة الأولى من هذا الكتاب زاد الأستاذ حمزة ترجمة مايتعلق بمصر من رحلة أوليا چلبى وهو كتاب ممتع يصف مصر وصفاً مفصلا دقيقاً، وستنشره وزارة المعارف، وترجمة « الدين والعلم » الذى ألفه القائد التركى الكبير المشير أحمد عزت باشا.

وتبعهم الفرس ، واقتفى آثارهم الترك . فكان الكلام على نصيب هذه الأمم في الحضارة الإسلامية مسايراً للترتيب التاريخي .

وقد تضمن الكتاب أبحاثاً قيمة وآراء سديدة ، وتناول الجوانب الخفية ذات الخطر في تاريخ الحضارة ، مثل الاقتصاد ، ونظام المدن وسعتها ، والسكة ، والخراج ، ورواتب عمال الدولة . ولا بد لمثل هذه الأبحاث من كد ودأب .

وليس تاريخ الحضارة بالأمر الأمَم ، فإن الناس يرون الحوادث السياسية والخطوب المُحسّة و يسجلونها ، ولكنهم يغفلون عما وراءها من أسباب خفية ، ولا يكادون يشعرون بالقوانين الاجتماعية والاقتصادية التي تنطوي عليها الحادثات الظاهرة . فلا بد لمؤرخ الحضارة أن يجاوز الظواهر إلى البواطن ، ويكشف الجزئيات عن الكليات ، وينفذ إلى الحقائق التي تُسيِّر التاريخ . و إن الإنسان ليعجز عن إدراك كثير من هذه الحقائق وهي أمامه ، فكيف بمن يلتمسها في غيابات التاريخ .

والمؤلف غير متحيز فيما يكتب ، منصف حين يتكلم على الشرق والغرب ، والمسلمين والمسيحيين ، لا يتردد في الاعتراف للشرق بمزاياه ، وللمسلمين بالبرّ والإحسان ، و بما أجدوا على حضارة العالم كله في العلوم والآداب والشرائع .

وفي الكتاب آراء جديرة جداً بالاهتمام . منها كلام في الفصل الأخير عن أسباب تقدم أوربا وعن حال المسلمين في العصور الأخيرة ، وعن انتفاع أوربا بأشياء اخترعها الشرق ولم ينتفع بها كما انتفعت ، وعن أثر

التجارة وطرقها فى سبق الأوربيين .

ويتضمن الكتاب كذلك فوائد لا تتهيأ إلا لمن أعانه سَعة علم وبحث . اقرأ قوله فى صفحة ٢٩ :

« وقد مُهد لحركة القرن السابع (الفتوح الإسلامية) بحركات العرب الصغيرة التى امتدت من قبل خارج شبه الجزيرة ولكن لم تبلغ درجة الفتوح . وكانت البلاد الواقعة شرقىّ الفرات أسفل مصب نهر الخابور تسمى « بلاد العرب » منذ عهد قرطاجنة حوالى ٤٠١ قبل الميلاد ، كما أن المدن القبطية فى مصر العليا تصف عربية منذ زمن استرابون » .

وقوله أنه كان فى الجيش البوزنطى فى القرن الثانى الهجرى مدرّب عربىّ ، وأنه تركهم إلى البلغار فانتصروا على البوزنطيين ، ص ٥١ .

وقد أجمل المؤلف البحث . ولو فصله فى هذه الموضوعات الواسعة لكتب أضعاف ما كتب . فكتابه يشبه « متنا » فى تاريخ الحضارة الإسلامية يحتاج إلى شروح مطولة . ويظهر الاقتضاب فى بعض فصوله حتى يشعر القارئ أنهُ انتقل من موضوع لم يستوفه إلى آخر لم يمهِّد له . والقارئ الذى لم يطلع على تاريخ الفرس والترك وآدابهما يمر بأسماء لكبار العلماء والأدباء ، وخطوب جسيمة تحتاج إلى بيـان . وقد بينا بعضها ، وخفنا أن يؤدى الاستيعاب إلى إطالة الحواشى .

ويؤخذ على المؤلف أنه لم يُحكم ترتيب الأبحاث وتقسيم الفصول ، فيشعر القارئ أحياناً أنه يقرأ سجلا فيه حقائق قيمة وآراء سديدة جمعت

للاستفادة منها على غير ترتيب واتصال .

وفى الكتاب مآخذ قليلة فى أمور يختلف فيها النظر . ومن هذا أن المؤلف تابع ابن خلدون فى كلامه على العرب والعجم ونصيبهما فى العلوم الإسلامية وأثر العرب فى خراب المدن ؛ فقال فى صفحة ٤٠ وهو يتكلم عن البصرة والكوفة : «ففيهما وضِعت علوم العقائد والفقه من قبل الأعجام». ونقل عن ابن خلدون (ص ٦١) أن العرب بدو هادمون للحضارة وهو قول لا يصدقه التاريخ ، فأئمة علوم الدين واللغة فى ذلك العصر أكثرهم عرب . ولست أقول هذا عصبية للعرب ولكن أحقاقاً للحق . فقد ظُلم العرب منذ شاع رأى ابن خلدون العربى الكندى فى أن حملة العلوم فى الإسلام أكثرهم العجم . وهو كلام يعوزه شىء من التبيين . وليس هذا موضع المجادلة فى رأى ابن خلدون ولكنى أعارض رأيه بهذه الكلمات :

١ — وضع ابن خلدون العرب فى مقابل غير العرب، فجعل أمة واحدة فى إزاء أمم كثيرة ، فظهر لغير المتثبت أن نصيب العرب فى العلوم الإسلامية قليل .

٢ — ولم يسر ابن خلدون فى كلامه على خطة واحدة . فقد نظر إلى البيئة حين أراد أن يجعل العرب فُرساً فقال عن علماء العرب الذين عاشوا فى إيران أنهم عجم بمنشئهم وشيوخهم ، ونظر إلى الجنس حين أراد أن يجعل العجم الذين عاشوا فى بلاد العرب عجماً . ولو نظر إلى البيئة وحدها لعدّ من العرب كل العلماء الذين نشأتهم الكوفة والبصرة و بغداد والبلادُ العربية كلها ، وعد سيبويه البصرى تلميذ الخليل للعرب . ولو نظر إلى

النسب وحده لعدّ للعرب كثيراً من أبنائهم الذين نشأتهم البلاد العجمية مثل الفخر الرازى ومحمد عوفى وجلال الدين الرومى إلخ .

٣ — ولست أدرى كيف غفل هذا الفيلسوف الكبير عن حقائق التاريخ الباهرة ، فقد استولى العرب على الشام والعراق ومصر و إيران فلم تخرب ، وقد سارعوا إلى إنشاء المدن منذ القرن الأول و بقى كثير من هذه المدن على مر الزمان ، وكان لهم فى الزراعة والتجارة والعمران نصيب لا ينكره إلا من صرف الله بصره وقلبه عن الحق .

٤ — على أنه قد ثبت أن ابن خلدون يقصدبالعرب فى كثير من كلامه الأعراب كما يقال اليوم للبداة فى كثير من البلاد العربية .

و بعد فللأستاذ المستشرق بارتولد الفضل بما كتب فى هذا الموضوع العريض ، و بما بذل من عقله وجهده فى درس التاريخ الإسلامى عامة . وللأستاذ محمد فؤاد كوپريلى الثناء والشكر على ما سعى فى إخراج هذا الكتاب و بما علق عليه تعليقات تدل على سعة علمه ، وللأخ حمزة الفضل والشكر على أن وفق إلى نقل هذا الكتاب القيم إلى اللغة العربية فمكن قراء العربية عامة وتلاميذه فى الجامعة خاصة من الإطلاع على هذه الفصول المفيدة

عبد الوهاب عزام

رئيس معهد اللغات الشرقية

(سفير مصر فى پاكستان اليوم)

ترجمة حياة المستشرق بارتولد

لمترجم الكتاب إلى العربية

بارتولد هو أحد كبار العلماء الذين أنجبتهم روسيا القيصرية ، وقد وقف معظم حياته على خدمة التاريخ ولا سيما تاريخ الأمتين التركية والإيرانية ، إذ تخصص فى دراسة مواطن هاتين الأمتين ، وحاول تنوير المواضع المظلمة فى تاريخهما بأبحاثه الوافية . وقد حكى أحد تلاميذ بارتولد حادثاً حدث له وهو طالب كان له أكبر تأثير فى حياته المستقبلة . قال : « كان بارتولد يعرج قليلاً وبإحدى عينيه حول . وقد أحب فتاة رائعة الجمال وأقام على هذا الحب آماله . ولكن ظهر شاب جميل أعجب الفتاة بجماله فانتزعها منه . فتأثر بارتولد وحلف ليختصنّ بشىء لا يستطيع أحد أن ينتزعه منه ، وأخذ فى الاستشراق حتى صار حجة فيما اختص فيه » .

ونورد هنا نبذة من ترجمة حياته مستخرجة من مقدمات بعض مؤلفاته ومن مقدمة الترجمة الهندية لهذا الكتاب ومن بعض المجلات .

ولد ڤاسيلى (وسمّاه بعضهم بولهلم) ڤلاديميرويچ بارتولد فى بطرسبرج

سنة ١٨٦٩ من أسرة ألمانية قديمة استوطنت روسيا . وتخرج فى كلية اللغات الشرقية بجامعة بطرسبرج سنة ١٨٩١ . وفى عامى ١٨٩١ و ١٨٩٢ حضر محاضرات أوجُست مولر فى جامعة هال ونُلدكه فى جامعة ستراسبرج بألمانيا ، ثم رجع إلى روسيا وقام برحلة علمية إلى تركستان استغرقت سنتى ١٨٩٣ و١٨٩٤ . ونشر تقريره عن هذه الرحلة فى بطرسبرج سنة ١٨٩٥ باللغة الروسية . وفى سنة ١٨٩٦ ألقى محاضرات فى تاريخ الشرق بجامعة بطرسبرج وقد رشح للأستاذية فيها . ونال شهادة الدكتوراه من جامعة بطرسبرج سنة ١٩٠٠ برسالة قدّمها لهذا الغرض عنوانها « التركستان أثناء استيلاء المغول » ، وترجم كتابه هذا إلى الإنجليزية بعد أن أعاد النظر فيه ونقحه ، ونشر فى مجموعة جب التذكارية سنة ١٩٢٨ طبعته الثانية . ثم عين أستاذاً فى جامعة بطرسبرج ، وعضواً فى معهد العلوم الروسى . وقد ذاعت شهرته ، ودعى لإلقاء محاضرات فى موسكو وطشقند وباكو وغيرها من المدن .

ونشر فى طشقند سنة ١٩٠٢ بحثاً عن بحيرة آرال ومصب نهر جيحون (آمودريا) . وترجم كتابه هذا إلى الألمانية باسم Nachrichten über den Aral-See und den unteren Lauf des Amu-Darja . وظهر فى سنة ١٩٠٣ كتابه المسمى « نظرة تاريخية وجغرافية إلى إيران » (باللغة الروسية) . وألف فى سنة ١٩١١ تاريخ الدراسات الشرقية فى أوربا وروسيا . نشر قسم من هذا الكتاب مترجماً

إلى اللغة التركية فى مجلة « ملّى تتبعلر مجموعه سى » . ونشر فى سنة ١٩١٤ كتابه المسمى تاريخ الرى فى تركستان (باللغة الروسية) . وكتب سنة ١٩١٨ فى حياة ألوغ بك وزمنه وألقى محاضرة فى تاريخ التركمان (باللغة الروسية) .

وظهر فى سنة ١٩١٨ كتابه تاريخ الحضارة الإسلامية باللغة الروسية ، وهو هذا الكتاب الذى ترجمناه .

وظهر له فى سنة ١٩٢٢ كتاب العالم الإسلامى باللغة الروسية . وفى عام ١٩٢٥ نشر فى مدينة باكو رسالة عن موقع الأراضى الواقعة حول بحر الخزر فى تاريخ الإسلام . ثم نشر فى عام ١٩٢٦ كتاباً باسم « قوقاز وتركستان وڤولجا » وموضوعه العلاقات السياسية والدينية بين أمراء روسيا الإسلامية .

وفى عام ١٩٢٦ دعاه معهد التركيات لإلقاء محاضرات فى جامعة استانبول عن تاريخ الترك ومدنيتهم فى آسيا الوسطى ، فألقى اثنتى عشرة محاضرة قيّمة طبعت فى استانبول ، وقد استفدنا معظم هذه المقدمة من مقدمة هذه المحاضرات . وله رسائل أخرى ، أمثال « النصارى فى آسيا الوسطى » نشرت فى القسم الشرقى لمجلة جمعية الآثار الروسية فى المجلد VII ؛ ثم ترجمت إلى اللغة الألمانية باسم Zur Geschischte des Christentums in Mittelasien, ثم ترجمت إلى التركية . ورسالة « لوحة بالفارسية على جدار مسجد منوچهر » بالروسية ، ورسالة

« الإسلام » بالروسية . وآخر ما ظهر له كتابه « تاريخ الحياة الثقافية فى تركستان » وكتابه « محاضرة تاريخية عن قير غيز » وقد ظهرا فى سنة ١٩٢٧ .

وظل بارتولد يؤلف ويكتب فى كثير من المجلات العلمية فى روسيا وألمانيا مقالات تاريخية قيمة وفى دائرة المعارف الإسلامية حتى توفى فى أغسطس سنة ١٩٢٧ .

وأما كتاب تاريخ الحضارة الإسلامية هذا ، فقد ترجمه جمال الدين وليدى أحد كتاب أتراك الشمال إلى اللهجة التركية القازانية سنة ١٩٢٢ ، وترجمه غازى يوسف وهو كاتب تركى أزبكى إلى اللهجة التركية الأزبكية سنة ١٩٢٧ . ثم ترجمه إلى اللهجة الغربية (العثمانية) أحد أورال تلميذ الأستاذ محمد فؤاد كوبريلى ، أستاذ الأدب التركى بجامعة استانبول سابقاً ، وأستاذ تاريخ القرون الوسطى فى السنين الأخيرة . وكتب له الأستاذ كوبريلى تصحيحات و إيضاحات قيمة ، ونشره فى سنة ١٩٤٠ .

ولما قرأت الكتاب فى هذه الترجمة ، عقب صدوره ، وجدته كتاباً قيماً ، إذ ذكر المؤلف فى مجلد صغير زبدة ما يمكن أن يقال عن الحضارة الإسلامية ، محلقاً من علو شاهق ، وقد أبدى كثيراً من سعة الصدر إلى جانب سعة العلم ؛ فعرضته على صديقى العزيز وزميلى الدكتور عبد الوهاب عزام بك أستاذ الأدب العربى بجامعة فؤاد الأول ورئيس معهد اللغات الشرقية ، فاستصوب نقله إلى اللغة العربية ، وشجعنى

قائلا : « إنه جدير بالترجمة إلى العربية لاحتوائه على آراء عالم مستشرق بعيد عن العالم الإسلامى » كما تفضل بعد إكمال طبعه بكتابة مقدمة له .

ونقلته إلى العربية ، لغة الثقافة المشتركة لجميع المسلمين ، نقلا يكاد يكون حرفياً ، مع مقدمة الأستاذ محمد فؤاد كوپريلى ، وبعض تعليقاته المفيدة ، وزدت تعليقات رأيتها مفيدة للقارئ ، وكتب الدكتور عزام بك تعليقات أخرى . وحسبى من عملى هذا أن أنقل آراء هذا العالم الجليل إلى قراء العربية ، أميناً متثبتاً .

حمزه طاهر

مقـــدمة

الأستاذ العلامة محمد فؤاد كوپريلى

١

إن عهداً طويلا من تاريخ الترك يقارب ألف عام ، منـذ دخول الترك فى الإسلام إلى « التنظيمات[١] » داخل فى إطار عام يسمى تاريخ الإسلام . وقد دخل الأتراك فى جامعة الأمم الإسلامية وعملوا مع العرب والإيرانيين وعناصر إسلامية أخرى على ازدهار الحضارة العظمى التى تسمى الحضارة الإسلامية أكثر من ألف عام ، وأسسوا فى ساحات الإسلام المختلفة دولا قائمة على الارستقراطية العسكرية ، وجعلوا فى أيديهم قيادة العالم الإسلامى منـذ ظهور الدولة السلجوقية الـكبرى حتى العصر الأخير . فمن الطبيعى ألاّ يُفهم تاريخ الإسلام دون معرفة تاريخ الترك الذين أثروا تأثيراً كبيراً مستمراً فى شؤون العالم كله وفى العالم الإسلامى خاصة ،

---

(١) عهد التنظيمات فى تاريخ الدولة العثمانية يبدؤ بتلاوة رشيد باشا وزير الخارجية أمر (فرمان) السلطان عبد المجيد ابن السلطان محمود الثانى فى حديقة « كلخانة » سنة ١٢٥٥ هـ (١٨٣٩) م فى حضور سفراء الدول وقناصلها وأعيان الدولة العثمانية وعلمائها . ويتضمن ذلك « الفرمان » ما يعتزم السلطان اجراءه من الإصلاحات فى إدارة الدولة ، والمساواة بين رعايا الدولة دون نظر إلى الفروق الدينية .

كما أنه من الطبعى أيضاً ألا يمكن فهم تاريخ الترك فى القرون الوسطى بدون إدخاله فى إطار تاريخ العالم الإسلامى .

وقد أصبح معروفاً اليوم أنه لا يمكن البحث فى تاريخ من التواريخ القومية دون أن يوضع فى مكانه الطبعى من التاريخ العام . فإذا تركنا جانباً ما أحرزه التاريخ ولا يزال يحرزه من الخطورة فى التربية القومية ، فإنما يقاس قيمة كل تاريخ قومى وخطورته بعظمة تأثيره المادى والأدبى ودوام هذا التأثير فى إطار التاريخ العام . وإذا لم نبلغ هذا الحد من فهمنا للتاريخ العام التركيبى (synthétique) فإن درس تاريخ كل أمة ضمن دائرة ثقافتها أو ثقافاتها التى تتصل بها ضرورة لاشك فيها ؛ فليس ضرورة علمية فحسب ، بل من الضرورات القومية أيضاً أن يبحث الأتراك — الذين أمضوا ألف عام من تاريخهم فى دائرة ثقافة تاريخ الإسلام فى الشرق الأدنى ، والذين كان لهم شأن عظيم فيها — فى هذه الثقافة بحثاً جديراً بها . وتبدو هذه الضرورة فى درس تاريخ الفكر والفن ، وتاريخ الشريعة وتاريخ الدين ، أو بكلمة واحدة ، تبدو فى جميع شُعَب التاريخ الاجتماعى . وكما أنه لا بد من معرفة تاريخ التشريع الإسلامى معرفة نظرية وعلمية لدرس تاريخ شرائع الأتراك المسلمين ، فإنه من الضرورى كذلك فهم تاريخ النظم المشابهة لها عند العرب والإيرانيين ؛ وبهذه الصورة يتضح أنه لا يمكن فهم المسائل التشريعية الخاصة بأمة منها فهماً

حقيقياً بدون فهم تاريخ تكامل التشريع بدراسة مقارنة لشرائع تلك الأمم الثلاثة الداخلة ضمن دائرة ثقافة واحدة . ومع أن لكل أمة من الأمم الداخلة ضمن الثقافة الإسلامية ماضيها وتقاليدها الخاصة بها قبل الإسلام ، وعبقريات نشأت من البيئات الجغرافية والحضارات المحلية ، فإن لها ميزات عامة نشأت من اجتماعها فى دائرة ثقافة واحدة و « تاريخ مشترك » .

يتضح من الأسباب المذكورة أن تعلم تاريخ الإسلام والثقافة الإسلامية ، ولو فى صورة مجملة ، ضرورة قصوى لمثقفى الترك الذين يشعرون بحاجة إلى الحصول على ثقافة فى تاريخهم القومى .

وينبغى ألا يُستغرب إذا قلنا إن أحدث الكتب المؤلفة فى هذا الموضوع المنشورة فى بلادنا وأعظمها لا تسد هذه الحاجة . فكتاب « التمدن الإسلامى » لجرجى زيدان ، المرتب على خمسة أجزاء . والمترجم إلى التركية ترجمة حسنة ؛ وتاريخ الإسلام للسيد أمير على الهندى المرتب على جزئين ، يمكن أن يزوّدا قرّاءهما بمعلومات كثيرة مشتتة غير منسجمة ؛ ولكن لا يمكن أن نعرف من هذين التاريخين مكانة الحضارة الإسلامية الحقيقية فى تاريخ العالم ، المنبثة فى مئات الصفحات لأنهما ينقلبان أحياناً إلى تاريخ قصصى وأحياناً إلى مدائح (apologie) . إن أمثال هذه الكتب المؤلفة بالعقلية الشرقية متعبة جداً وقليلة الجدوى لعقلية قد أعدّت كما يقتضى تثقيف القرن العشرين ، وتشعر بحاجة إلى فهم الماضى موافقاً لنظرات هذا

اليوم . ولكي نرى صفحات تطور تاريخي قد امتد قروناً كثيرة بخطوطها العامة البارزة يجب النظر من عَل بدون استغراق فى الفروع غير اللازمة ، ولا إخلال بوضوح اللوحة العامة وصحتها . ولأجل الوصول إلى هذه الغاية يجب على المؤرخ ، مع اطلاعه على جميع تلك الفروع ، أن يكون عالماً بتمييز الأحداث الفرعية عن الأحداث الأصلية ، أو بعبارة اصطلاحية أن يميز الأحداث العارضة من الأحداث الدائمة ، أو بعبارة أصح يجب أن يكون مطَّلعاً على المعلومات المختلفة المؤدية إلى إدراك حدود الحقائق الاجتماعية المرتبطة بعضها ببعض . فإن نظر المؤرخ وفهمه عاملان من الدرجة الأولى ، سواء فى الاعداد التحليلى لتمييز الأحداث بعضها من بعض ، أو فى وضع إنشاء تاريخى بإيضاح تلك الأحداث وتركيبها . ومن أجل ذلك يضطر مؤرخ كل عهد أن يعنى بالمسائل التى شغلت الأذهان فى ذلك العهد قبل غيرها ، وتسجيل مظاهرها و إيضاحها . مفكرو اليوم مثلا يُعنون بالمسائل الاقتصادية والاجتماعية قبل غيرها ، فيعنى مؤرخو اليوم كذلك بالبحث فى أصل هذه المسائل ومظاهرها فى الماضى لأن العقلية المعدة لحاجات اليوم إذا أرادت أن تعرف عهداً من العهود الماضية بحثت فى كتب التاريخ التى ترجع إليها ، فى مظاهر تلك المسائل فى الماضى . و ينبغى أن نعذر فى هذا قارئاً غير متخصص لا يعنيه غير إتمام ثقافته العامة . ولكن لا شك أن هناك فرقاً بين الكتب المؤلفة لإقناع المتخصصين المتبحرين والعلماء فى ساحة من ساحات العلم ، وبين الكتب

المؤلفة لسد حاجة الطبقة المثقفة العامة .

فالكتب المؤلفة فى تاريخ الإسلام وحضارته التى ذكرناها آنفا ، أو الكتب الشرقية ، بل بعض الكتب الغربية الشبيهة بها أيضاً ، ليست كافية لسد حاجة مثقفى الترك اليوم . فمؤلفوها ، كجرجى زيدان مثلا ، علماء ذوو معلومات واسعة ؛ ويمكن أن يجد المشتغلون بتاريخ الإسلام ، بل المتخصصون أيضاً ، معلومات كثيرة فى كتابه الكبير . ولكن لا يمكن انتظار تاريخ « تركيبى » يطمئن إليه قراء أمس ، بله اليوم ، من رجل قد حُرم من الاعداد الفنى الضرورى « للأعمال الأولية التحليلية للتاريخ » . والحق إننا مضطرون إلى الاعتراف بأننا بالرغم من أدعائنا الدخول فى دائرة الحضارة الأوربية منذ عهد « التنظيمات » ، لم ينشأ عندنا ، ولا فى البلاد الإسلامية الأخرى ، مؤرخ حقيقى بالمعنى المفهوم اليوم إلى زمن قريب . وليس كافياً لسد هذه الحاجة أن نبغ فى الشرق خلال القرن الأخير ، رجال لهم معرفة تاريخية واسعة ، ومعرفة فنية ، ومحيطين بأمور كثيرة . على أننا لا ننكر أنه من النادر أن نجد بين مستشرقى الغرب المتخصصين فى فقه اللغات الإسلامية ، مؤرخين بالمعنى المعروف اليوم . ولذا فإن الدراسات الخاصة بتاريخ الإسلام اليوم ، وتاريخ الترك فى القرون الوسطى ، ولا سيا دراسات التاريخ الاجتماعى ، لا تزال متأخرة . فما أسرع ما يظهر فتور الأبحاث المكتوبة

عن تاريخ الإسلام وتاريخ الترك فى القرون الوسطى ، وخاصة فى المسائل الاجتماعية ، فى كتب التاريخ العام التى ظهرت بكثرة فى أوربا بعد الحرب العالمية ، عند مقارنتها بالأبحاث الأخرى . لندع المؤلفين الذين عجزوا عن القيام بالعمل كما يجب ؛ ولكن هذا النقص فى مؤلفات العلماء الأجلاء أمثال G. Marçais, و G. Demombynes لا شك ناشىء من عدم تذليل هذه المواضيع إلى اليوم .

٢

كنت منذ نحو اثنى عشر عاماً أُدرِّس تاريخ الأدب التركى فى جامعة استانبول ، وأحسست إذ ذاك بشدة حاجة تلاميذى إلى كتاب صغير تركيبى محتو على معلومات صحيحة عن تطور الحضارة الإسلامية العام ، يوسع نظرهم إلى التاريخ ويجمع المعلومات المشتتة فى هذا الموضوع فى دوائر معينة . ولا تفيد أمثال هذه الكتب إلا إذا ألفها علماء من عظماء المتخصصين . وأما كتب المؤلفين الناشئين المحدثين غير المستندة على علم واسع وتجاريب سنين طويلة فيمكن أن تدفع القراء إلى حكم مستعجل خاطىء ، وتنتج أخطاراً عظيمة بتحريف الحقيقة التاريخية . وفى ذلك الوقت أنجدنى كتاب صديقى المرحوم الأستاذ بارتولد الذى لم يكن عالماً بفقه اللغات فحسب بل مؤرخاً جليلاً أيضاً .

ظهر هذا الكتاب فى سنة ١٩١٨ باللغة الروسية ، وترجمه جمال وليدى

إلى اللهجة التركية التترية فى قازان سنة ١٩٢٢ . وفى سنة ١٩٢٧ ترجمه غازى يونس إلى اللهجة الأزبكية ولما عُهد إلىّ فى السنين الأخيرة تدريس تاريخ القرون الوسطى فى كلية أنقره ، أحسست بالحاجة إليه لطلبة التاريخ . وكلفت تلميذى « أحداورال » بترجمته إلى التركية . ولكن لم يكن جائزاً قصر الانتفاع بهذا الكتاب الجليل الذى يسد مثل تلك الحاجة الكبيرة على بيئة ضيقة ، فإن فى إمكان كل تركى متعلم ، مهما كان نوع ثقافته ، الانتفاع به فى استكمال معلوماته البشرية والقومية ، بدون حصره فى بيئة طلبة الجامعة والمدارس العليا .

ولذا أحدثت هذه الترجمة مقابلة بالترجمتين التترية والأزبكية مقابلة دقيقة ، وأصلحت بعض أغلاط خطيرة وقعت فيهما ؛ ثم قارنتها بالترجمة الإنجليزية (Mussulman Culture, University of Calcutta 1934) لشاهد السهروردى الذى لم يزد غير بعض حواش غير مهمة فى بضع صفحات ، وترجمة المؤلف وذكر مؤلفاته . ثم أردت ألا أقتصر على هذا القدر لأسباب مختلفة : منها أن الكتاب ألف سنة ١٩١٨ فلم يُستفد فيه من كتب كثيرة فى تاريخ الإسلام وثقافته ، ظهرت بعد التاريخ المذكور . ومنها أن المؤلف العظيم المتخصص فى تاريخ إيران وآسيا الصغرى وقع فى أخطاء فى المسائل الخارجية عن دائرة اختصاصه فكرر كثيراً من الأخطاء والأحكام العاجلة التى عرفت منذ القدم . ولتصحيح تلك المسائل وتكميلها اضطررت إلى إضافة قسم آخر للكتاب

بعنوان « الإيضاحات والتصحيحات » واضعاً نصب عيني فى عملى هذا حاجة طلبة التاريخ فى معاهدنا العلمية العليا ، فبينت فى كل مسألة خطيرة أين يمكن الحصول على معلومات فيها ، أو بعبارة أصح أين توجد المراجع مجتمعة ، وذكرت ماهية تلك المراجع وقيمتها بعبارات مختصرة كما ذكرت ما فى المراجع من نقص يجب إتمامه . فستكون الإيضاحات والتصحيحات توجيهاً لمن يريد التعمق فى مسائل الحضارة الإسلامية . ولقد حاولت إظهار بعض مسائل عويصة لم تُذلل بعد ، كما أشرت إلى نقط كثيرة من دراستى القديمة يجب تصحيحها . و بفضل هذه الزيادات التى هى نتيجة مجهودات طويلة متعبة لايدركها إلا من قام بمثلها ، جاوز الكتاب أن يكون كتاباً يزود المثقفين والمفكرين بمعلومات عن الحضارة الإسلامية ، فصار كتاباً موجِّهاً لمن يريد البحث فى شعب تاريخ الترك وحضارتهم المختلفة . وإنى أظن أن كلا القسمين ، القسم الأول التركيبى الذى ألفه المؤرخ الجليل بارتولد والقسم الثانى النقدى والمرجعى (bibliographique) الموجِّه الذى كتبته ، يفيد كثيراً نشأتنا الحديثة التى تتلقى علم التاريخ فى كلية آدابنا . ويدل على ما يسد هذا المجلد الصغير من نقص كبير أنه لم يوجد حتى اليوم كتاب من هذا الطراز فى الحضارة الإسلامية حتى فى اللغات الغربية .

٣

بعد أن بينت كيف تكوّن هذا المجلد الصغير أريد أن أذكر سبب اختيارى له « كتاباً تركيبياً مشتملا على أحسن المعلومات وأكثرها نظاماً » يرجع إليه المثقفون من جميع الطبقات للاطلاع على تطور تاريخ الحضارة الإسلامية العام ، حتى يمكن إدراك ماهية كتاب بارتولد وتبيين جهاته القوية والضعيفة من جهة ، ويمكن تزويد القراء بفكر عام عن كتب شبيهة به بمقارنتها بكتاب بارتولد من جهة أخرى .

من التقاليد المعروفة لدى مستشرقى أوربا ، منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، « جمع نتائج الأبحاث التى وقعت إلى زمانهم وتلخيصها » فى كتاب تركيبى عن دين الإسلام والعالم الإسلامى . فالاشتغال بفقه اللغات السامية وتاريخ الإسلام الناشىء من أبحاث التبشير ونشاط المبشرين من جهة ، ومن الحاجات السياسية والإدارية للدول الكبرى والصغرى التى لها مستعمرات ، والضرورة الملحة إلى أن تعرف الدول ذوات المصالح الكبيرة الشعوبَ التى تستعمرها ، والممالك الإسلامية التى لها صلات بها ؛ كل هذا كان منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر إلى سنة ١٩١٤ ، سبباً لنهضة الدراسات الإسلامية فى أوروبا . وقد زاد فى خطورة هذه الأبحاث ، وتعلق الطبقة المثقفة بها فى كل

البلاد ، رقى العلوم الاجتماعية وفهم التاريخ العام ، واجتماع الضرورات العلمية لمعرفة المراحل العظيمة التى « تربط التاريخ القديم بتاريخ القرون الوسطى » بهذه الضروروات العملية . فالكتب المرتبة ، والتركيبية التى يشعر العلماء المتخصصون فى الأبحاث الإسلامية بالحاجة إلى كتابتها حيناً بعد حين ، ناتجة عما سبق . وأما الحركات السياسية والفكرية ، وتيارات الحركات القومية والتجديد التى ظهرت بعد انتهاء الحرب العالمية ، فقد جعلت شعور العالم الغربى — لغايات سياسية وعملية — أكثر علاقة بالعالم الإسلامى . وكانت الضرورات العلمية تزيد الحاجة إلى درس تاريخ الأمم الإسلامية وحضارتها والتعمق فى فهمها يوماً بعد يوم . فقد أريد ألا يُقصر التاريخ العام على الغرب المسيحى كما كان من قبل ، بل يجعل تاريخاً بشرياً تركيبياً محتوياً على الشرق الإسلامى والشرق الأقصى الخارج عن حدود الأديان السامية . ونشاهد هذا الميل قليلا أو كثيراً فى سلسلة كتب التاريخ العام التى نشرت فى أوربا ؛ ومع أن هذا الميل لا يزال فى المقدمة ولا يفترق عن « الروتين » القديم ، فإنه يبشر بانتصار فهم التاريخ العام بمعناه الحقيقى فى المستقبل . فكتاب بارتولد هو من تلك الكتب التركيبية التى ظهرت فى أوروبا بعد الحرب العالمية عن العالم الإسلامى ، نتيجةً لتلك الميول فى عالم الفكر .

إذا قورنت هذه المؤلفات جميعاً بكتاب ڤ . بارتولد مقارنة سطحية ظهر أنها كتب تكثر العناية بالبحث فى نشأة الإسلام ، والعقائد الإسلامية

الأصلية ، والفلسفة وعلم الكلام ، وفى المذاهب الإسلامية المختلفة ، وفى المذاهب الفقهية وفى الطرق الصوفية وفى فرق خارجة عن عقائد أهل السنة ؛ وفى حركات التجديد الدينية التى ظهرت فى الأزمان الأخيرة أو فى حالة العالم الإسلامى السياسية اليوم ؛ ولم تُعن هذه الكتب قط بالتطور التاريخى للأمم الإسلامية . وإذا تركنا جانباً الكتب البسيطة منها ككتاب العالم الإسلامى Le Monde Islamique لمؤلفه مايرهوف Mayerhof الذى نشره سنة ١٩٢٦ ؛ فمن الكتب المؤلفة على هذه الخطة كتاب النظم الإسلامية les Institutions Musulmanes العظيم الذى أصدره ديمبين G. Demombynes عام ١٩٢١ ، وكتاب الإسلام والعقائد والنظم L'Islam, Croyances et Institutions (بيروت ١٩٢٦) للأب لامنس غير البرىء من التحيز رغم سعة علومه . والكتاب الأخير يكمّل بعض نقط كتاب العقائد والشرائع الإسلامية العظيم الذى ألفه جولدزيهر سنة ١٩١٠ le Dogme et la loi de l'Islam ، ونشر أرين F. Arin ترجمته الفرنسية سنة ١٩٢٠ . ولا استثنى منها إلا كتاب الإسلام L'Islam الجليل الذى أصدره صديقى العزيز هنرى ماسّى H. Massé سنة ١٩٣٠ إذ قد حاول المؤلف فى هذا الكتاب إظهار التطور التاريخى للإسلام ، فوق الأبحاث الخاصة بالعقائد ؛ وخصص مكاناً للإيرانيين والأتراك والدول البربرية فى أفريقية الشمالية ، فلذا يمكن أن يشغل هذا الكتاب المؤرخين أكثر من غيره .

وأما كتاب بارتولد الصغير فلا يشبه من جهة تخطيطه العام كتاباً من تلك الكتب التى ذكرناها ؛ فليست فيه « الخلاصة المتعلقة بأصل الدين الإسلامى (dogmatique) » التى توجد فى جميع الكتب الأخرى كما لا تُشاهد فيه إيضاحات عن ظهور الإسلام وحياة الرسول وتعاليمه التى لا يخلو منها عادة مثل هذا الكتاب فى القديم والحديث . فقد حاول أن يصوِّر الحضارة الإسلامية « داخل حدود التاريخ العام » لا بعواملها الداخلية فحسب ، بل بعواملها الخارجية أيضاً . فالمؤلف الذى أبرز خطورة الشرق المسيحى للإسلام ، يشرح بعد مدخل عام ، ابتداء هذه الحضارة فى عهد الخلافة وازدهارها فى العهد العباسى ، وموقع الحضارة الإيرانية من الثقافة الإسلامية ، والنتائج العامة للاستيلاء المغولى ؛ ثم يصف العالم الإسلامى بعد القرن الخامس عشر وصفاً عاجلاً ناقصاً فيختم كتابه فجأة بطريقة عاجلة أيضاً .

ومع أن كثيراً من الكتب القديمة والحديثة المؤلفة فى موضوع عام كالحضارة الإسلامية قد اتبع مؤلفوها خطة تكاد تكون واحدة مع فرق ضئيل ، فإن وضع بارتولد نصب عينيه خطة مخالفة لخطتهم ، وعدم نظره إلا إلى التكامل التاريخى ، يجعل لهذا الكتاب ميزة خاصة . ثم إن الكتب الأخرى تبحث فى المؤسسات الاجتماعية المختلفة فى مباحث منفصلة ، فى حين أن بارتولد لا يقسم الحياة الثقافية إلى أقسام مصطنعة ، بل يصورها جميعاً « كلاً » واحداً كالحياة الواقعية ، ويحاول شرحها .

وينبغى ألا ننكر أن هذه الخاصة تجعل الكتاب فى الوهلة الأولى كأنه غير متبع خطة معينة . ولكن يجب أن لا ننسى قط أن المزاج الذى نسميه الحياة الاجتماعية والذى ينشأ من امتزاج عضوى لمؤسسات اجتماعية متنوعة وعناصر خارجية ، مؤلفٌ فى الواقع من عناصر لا يمكن تفريقها ، ويمكن فى الوقت نفسه عمل تركيب تاريخى . وفى وسعنا أن نقول أن بارتولد قد سار فى كتابه هذا متفقاً مع أحدث الاتجاهات التاريخية . وميزة كتابه الثانية عدم إهماله للعوامل الاجتماعية والاقتصادية للحضارة الإسلامية ما أمكن . هل لنظرية « التفسير المادى للتاريخ Matérialisme historique » التى اتخذت شكل مذهب رسمى فى روسيا فى السنين التى ألف فيها الكتاب تأثير فى هذا ؟ لا أزعم هذا ، إذ ليس فى إمكان المؤرخ الكبير الذى يُعنى بالأحداث الاجتماعية والاقتصادية فى بحوثه التاريخية إهمال مثل هذه المسائل حين يشرح تكامل الحضارة الإسلامية ، بل أكبر ما يمكن أن يوجه إليه من النقد هو عدم إفساحه مجالا أوسع للعوامل الاجتماعية والاقتصادية فى كتابه هذا .

إن أخطر ما فى هذا الكتاب عندنا هو عدم إنكاره شأن الأتراك فى سير الحضارة الإسلامية العام إنكاراً باتاً — رغم كل الآراء السلبية التى كانت سائرة فى ذلك الوقت فى عالم العلم — ومحاولته إبراز ذلك الشأن . على أننا لا ندعى تحرر بارتولد فى هذه المسألة من الآراء القديمة

الباطلة والأحكام الخاطئة التى كانت تسيطر على جميع مستشرقى ذلك الوقت ؛ فإننا كما لمحنا كثيراً فى الإيضاحات والتصحيحات نشاهد عنده أيضاً تأثير الآراء السلبية فى شأن الأتراك . وليست له إلا معلومات عامة عن الدولة العثمانية وهى أهم عصور تاريخ الترك وأزهاها ، لأنها خارجة عن دائرة اختصاصه . و بالرغم من ذلك قد وفق هذا المتخصص العظيم فى تاريخ إيران وآسيا الوسطى ، بتثبُّت عالم حقيق ولقانة (intuition) مؤرخ عظيم متعمق فى معنى الأحداث ، إلى إدراك شأن الأتراك فى مسائل كثيرة .

ومما يميز هذا الكتاب عن أمثاله اعتناء مؤلفه بالإيرانيين والأتراك ، بدون عناية مبالغ فيها بالعالم العربى ، و بلاد أفريقية الشمالية التى ظلت بعيدة قليلا أو كثيراً والتى لم يكن لها موقع أساسى خطير فى تطور الحضارة الإسلامية العام . و إذا استثنينا كتاب H. Massé فجميع الكتب الأخرى لا تجعل للأتراك مكاناً حتى فى صدد بحث التطور التاريخى ، و يفرضونهم عنصراً هادماً لا غير . وقد عنى بارتولد فى تاريخ الحضارة الإسلامية بالجوانب الخطيرة من حيث النظر فى تاريخ الترك و بلادهم وازدهار هذه الحضارة فيها ، عنايته بالتاريخ العام ، فمن الطبيعى أن يكون كتابه أفيد لمثقفى الترك وأكثر تعلقاً بهم . والحق أن مؤلفى الكتب الشبيهة بهذا الكتاب فى تاريخ الحضارة الإسلامية لا يمكن مقارنتهم ببارتولد كمؤرخين أيضاً .

٤

أظن أن الأسباب التي حاولنا شرحها بالإيجاز قد أوضحت ترجيحنا لكتاب بارتولد على غيره . فإننا بإشارتنا إلى الجهات القوية والجهات الضعيفة من هذا الكتاب المؤلف بعقلية تاريخية كاملة ونظرة واسعة ، قد أرشدنا القراء إلى الصورة الحقيقية للكتاب الذي بأيديهم . ولا ينبغي أن يُظَن ، بنقدنا المادي المحض ، أننا ننزع فيه إلى « فهم تاريخ قومي وجداني » أنتجته القومية المتعصبة ؛ ولو أن البحث في تاريخ تقدم أي وطنية يدل على أن الأدوار الأولى منه وجداني محض ، وأن لهذه الحملة النفسية الكبيرة فائدة جليلة في البحث التاريخي . فإذا استقرت الأصول العلمية ، والعقلية النقادة ، استحال دوام ذلك العهد الحماسي ، فحل محله العلم ومنطقه المادي . وإنا لنشاهد إنقضاء العهد الوجداني أو إشرافه على الإنتهاء حتى عند مؤرخي بلاد البلقان ، وهي أخريات البلاد الداخلة في الحضارة الغربية . وأما جعل التاريخ شاهد زور في سبيل المنافع السياسية أو للدفاع عن الآراء المغرضة ، فإنه عمل مؤلم حقاً وغير مجد للعلم وللكرامة الإنسانية . غير أنه يجب أن نقول مسرورين بأن مثل هذه الأعمال صائرة إلى الزوال ، وأن عدد العلماء الباحثين في التاريخ بحثاً واقعياً بصفة مادية محضة قد أخذ — رغم كل شيء — في الازدياد .

وقد رأت القومية التركية ، بالطبع ، العهد الوجداني لفهم التاريخ القومي ،

ولم يكن بد من أن يكون ردّ فعل مؤرخينا مفرطاً ومبالغاً إزاء مؤرخي أوربا الذين يرون الأتراك بآراء سلبية ظالمة غير مستندة إلى أي أساس علمي ، وكان الأمر كذلك حقيقة . إن تقدم النقد الذي هو أساس كل الآراء العلمية، واستقرار أصول الدراسات العقلية (rationnel) سيختم عندنا، كما ختم في كل البلاد ، هذا العهد التاريخي الوجداني « الذي ظل سائداً منذ أكثر من نصف قرن ، مع بعض فواصل » . ولكن هذا الفهم للتاريخ خلق عندنا ، كما خلق في كل مكان آخر، نزعة نفسية إلى البحث في التاريخ القومي ، باعتباره دافعاً إلى البحث في شأن الأتراك في التاريخ العام. ويجب أن أعترف أيضاً أن العامل الوحيد الذي دفعني قبل ثلاثين عاماً إلى البحث في التاريخ القومي وإلى عدم مفارقة هذا الطريق بالرغم من موانع كثيرة — توقع الإنسان في اليأس والكسل — هو هذه الحملة النفسية . على أني يجب أن أسرع فأقول بأني منذ اليوم الأول حاولت ألا أفارق الأصول العلمية والمادية في بحوثي التاريخية ، وأن أنقد آراء مؤرخي الغرب الوهمية السلبية في شأن الأتراك نقداً مادياً صرفاً . ولكني لا أستطيع أن أخفي أني قد اندفعت في تأثير الآراء الوجدانية في بعض كتاباتي القديمة ، رغم مالي من عزم أكيد على عدم مفارقة العقلية (rationalisme) ، غير أني لا بد أن أقول أيضاً وأنا مسرور أني بفضل النتائج الإيجابية التي حصلت عليها من دأبي على العمل مدة ثلاثين عاماً رغم كل الموانع ، قد وفقت لتغيير آراء كثيرة خاطئة في شأن الأتراك في القرون الوسطى ، وقِبلَ

كثير من علماء الغرب هذه النتائج .

إنى من المؤمنين بالعلم و بسير الإنسانية نحو الخير والصدق ، وأحمل اليوم فى قلبى وفى رأسى ثورة القومية التركية الانسانية كما حملتها منذ ثلاثين عاماً . ولكنى إذا شرعت فى البحث عن حقيقة تاريخية تذكرت أنى خادم حقيقة علمية قبل كل شيء . إنى أقول دائماً ، إنه مما لا شك فيه أن علماء العالم سيقبلون نتائج أبحاثنا إذا أبرزنا شأن الأمة التركية فى تاريخ العالم بطريقة مادية باحثين بعقلية اليوم ، كما أنه من المؤكد أن تستفيد الأمة التركية فائدة عظيمة .

و إنى أنتهز الفرصة حين أنتهى من هذه الأسطر مقدماً إلى القراء صديق المؤرخ الجليل المرحوم بارتولد ، فأنبيء بأنى أقوم بتجربة فى تأليف تاريخ تركيبي للحضارة التركية فى القرون الوسطى لتكميل تاريخ بارتولد من جهة أخرى .

تاريخ الحضارة الإسلامية

مدخـــل

« حضارة الإسلام » أو « حضارة العرب » اسم لحضارة الشرق فى القرون الوسطى . ولم يكن العرب وحدهم مبتكرى هذه الحضارة ولـكن جميع سكان الشرق الأدنى وقسم من أفريقية ، الذين ظلوا مدة طويلة منفصلين عن الحضارة الأوربية ، آخى بينهم الإسلام ، دين الدولة . واللغةُ العربية ، لغةُ العلم والأدب .

وليس استعمال كلمة « الشرق » فى تاريخ الحضارة متفقاً مع معناها الجغرافى اتفاقاً تاما ؛ فإن بلدان الشرق الأدنى المتحضرة كان يجب تسميتها فى روسيا بالجنوب . وكذلك إفريقية الشمالية التى تعد جزءاً من الشرق الإسلامى ، جنوبيةٌ بالنسبة إلى أوربا .

ابتدأ استعمال كلمة الشرق بمعنى البلاد المتحضرة مقابلا للغرب ، فى عصر الإمبراطورية الرومانية . ولم يكن يوجد فى نظر اليونان إلا الجنوب الحار المتحضر والشمال البارد موطن المتوحشين ، وكانوا فى تقسيمهم العالم إلى

أقسامه المختلفة يسيرون على هذا الأساس نفسه ، فيجعلون أوربا شمالىّ آسيا وأفريقية معاً ؛ فلو كانت سيبريا معلومة لهم لعدُت قسماً من أوربا . وجميع سكان العالم ، ما عدا اليونان ، ينقسم فى نظر أرسطو إلى البرابرة الشجعان المقيمين شمالىّ أوربا القاصرين عن التحضر وإدارة الدولة ، والأسيويين المتحضرين المحرومين من الشجاعة . وتقع اليونان بينهم . وإقليم بلادهم يلائم تقدم الحضارة والمحافظة على الشجاعة ؛ فلذا أرسل هذا الشعب ليحكم العالم . ولقد حقق الإسكندر المقدونى خيال أرسطو هذا بعض التحقيق ؛ فإن فتوح اسكندر الشرقية أخضعت الشرق الأدنى ومصر لليونان من جهة السياسة والحضارة ، وأوجدت حضارة شرقية متأثرة باليونان (متغرّقة) . وكان تأثير آسيا فى اليونان أقوى من بعض الوجوه — ولا سيما فى أمور الدولة — ولكن كانت أزمّة الحضارة بأيدى اليونان ، وقد حافظوا على تفوقهم فى الحضارة ، حتى بعد أن فقدوا سلطانهم السياسى بتضييق الپارثيين عليهم من الشرق والرومان من الغرب (١) .

أثبتت روما بإخضاع مصر لحضارتها خطأ رأى أرسطو القائل :

---

(١) للحصول على معلومات أوسع فى هذا يمكن مراجعة كتاب لبارتولد عنوانه « تاريخ الأبحاث الشرقية فى أوربا وروسيا » نشر فى مجلة (ملى تتبعلر مجموعه سى ، عدد ٢ ص ٣٦٤ — ٣٧٤ ، استانبول سنة ١٣٣١)

محمد فؤاد كوپريلى

« إن غير اليونان من الأوربيين غير مستعدين للحضارة » . لم تكن أوربا من جهة موقعها الجغرافى فى عهد الرومان من أجزاء العالم الواقعة شمالى أسيا ، بل كانت قسمه الغربى . وقد ادَّعى استرابون ، العالم الجغرافى الذى عاش قبل الميلاد بقرن — وقد بيّن موافقة أوربا للحضارة من جهة جغرافيتها الطبيعية وإقليمها — تفوق إيطاليا فى الموقع الجغرافى ، ورأى شبه الجزيرة هذا موضعاً يكفل للرومان سيطرتهم على العالم .

وقد أظهر الرومان تفوق أوربا على آسيا بنجاحهم فى الأعمال الحربية والفنون العملية والقوانين ، كما أن اليونانيين شغلوا الموقع الأول فى الفن والعلم . وبدأ الفرق بين الغرب المتأثر بالرومان وبين الشرق المتأثر بالأغريق فى هذا العهد . وكانت كلمة الشرق تطلق أحياناً إصطلاحاً ملكيا وإداريا ، « على جميع البلاد الداخلة فى إمبراطورية اسكندر القديمة » مبتدئة بشبه جزيرة البلقان . وأما العالم اليونانى والرومانى فكان يُعد عالماً على حدة فى نظر الرومان أنفسهم أيضاً لا فى تاريخ هذا العصر فحسب ؛ فكل رومانى مثقف ملزم بمعرفة كلتا اللغتين ، أى اللاتينية واليونانية . وكان الشرق على هذا المعنى بلاد الدولة الأشكانية غير الداخلة فى حدود الدولة الرومانية . ولم تكن روما تشك فى تفوقها على الشرق حضارة وسياسة . وكان استرابون يُعد البلدان التى تحكمها الدولة الأشكانية (البارثية) « بلاداً آئلة عن قريب إلى الدولة الرومانية » . وأما تاستوس Tacitus الذى عاش بعده بمائة عام

فلم يأمل هذا ، ولكن لم يحسب الشرق المنهزم عدوًا خطراً ، بل زعم أن الخطر الأكبر على الرومان عند الجرمان فى الغرب ؛ فإن حب الحرية عند الجرمان أخطر من الدولة الأشكانية . ولكن كان الشرقيون هم المغيرين على بلاد الدولة الرومانية ، المستولين عليها قبل هجوم الجرمان بزمن بعيد . قامت الدولة الساسانية فى القرن الثالث مكان الدولة الأشكانية التى ضعفت . وفى القرن الرابع أُبعِد الرومان من بحر الخزر نهائيا ، وكانوا قد استولوا عليه فى زمن پومپي (Pompei) . وصارت إيران مزاحمة قوية للدولة الرومانية فى زمن الساسانيين كذلك واستولت براً وبحراً على طريق تجارة الهند والصين ذات الخطر لجميع العالم المتحضر . وبهذا الحادث يبتدىء انتقال التفوق فى الحضارة من أوربا إلى الشرق الأدنى ، ويتجلى هذا كاملا فى عهد المسلمين . إن المسيحية والإسلام ثم مذهب التجديد الأدبى (Humanisme) غيرت آراء الأوربيين فى الشرق مرة أخرى ، فصارت معرفة لغة من اللغات الشرقية أمراً محتماً على كل أوربى مثقف . وكان تاريخ أوربا وآسيا الدُنيا يعدّان قسما واحداً . فالأفكار الواردة فى الكتاب المقدس عن أشور وبابل وإيران ومقدونيا التى تلا بعضها بعضاً ، ظلت سائرة فى أوربا كذلك حتى القرن السابع عشر . وبلغت مكانة روما (وتدخل فى هذا روما الثانية أيضاً إلى استانبول بعد انقسام الكنيسة إلى قسمين) حالة من اليقين لا تتطرق

إليها شبهة ، واعتبرت الأحداث المخالفة لهذه الحالة مؤقتة وغير طبيعية . وقد فصل الدين أوربا عن الشرق غير المسيحى ثم عن المسيحى غير الكاثوليكى . ولكن صار هذا الانفصال التجديدَ الأدبى الذى أرجع الحالة إلى ما كانت عليه قبل المسيحية . وأما انقسام التاريخ العام إلى ثلاثة أقسام باسم « التاريخ القديم » و « تاريخ القرون الوسطى » و « التاريخ الحديث » منذ القرن السابع عشر ، فقد أدى إلى أن يُنظر إلى الشرق كأنه عالم بقى منعزلا عن تأثير الحضارة اليونانية والرومانية فى الزمن القديم ثم عن الحضارة التى بدأت بنهضة تلك الحضارة القديمة فى الأزمان المتأخرة . فيبدأ الماضى ومعه التاريخ العام بتاريخ اليونان عند أصحاب هذه الآراء . وقد كان بعض علماء اللغات القديمة (كلاسيك) يحاول أن ينكر أن تاريخ اليونان هو امتداد لتاريخ الشرق القديم حتى بعد استكشافات القرن التاسع عشر .

ولا يرتاب معظم مؤرخى زماننا فى وجود حياة مدنية مديدة ذات طبقات مختلفة فى الشرق الأدنى ومصر قبل تاريخ اليونان . وهذه الحضارة ، كالحضارة اليونانية ، لم تتولد من عبقرية قوم بعينهم ، بل ولدت وترعرعت تحت تأثير العلاقات الدولية التى كانت فى ازدياد مطرد . وبهذا المعنى ، يفهم مؤرخ « الشرق القديم » فى زماننا من هذا الاصطلاح ، الساحات التى تمتد من القوقاز والشرق الأدنى (أوكْ آسيا) إلى بحر الهند وبحيرات أفريقية ؛ وما بين إيران والهند إلى جبل

طارق . ويكوّن تاريخ هذه البلاد وحدة منفصلة انفصالاً تاما .

ويفهم من هذا التعريف أن بلاد الصين والهند التى هى الممالك الشرقية للعالم القديم حقيقة ، لا تدخل فى الشرق الأدنى الذى يُعد جزءاً من تاريخ العالم . وقد اتخذ مفكرو أوربا لهذه البلاد اسماً مستقلاً وهو الشرق الأقصى . ويتصدى بعض المفكرين لإثبات أن تاريخ الشرق الأقصى عبارة عن رقى مدنى مستقل عن الغرب . وإذْ كانت الحضارة الأوربية وحضارة الشرق الأدنى قائمتين على أساس واحد ، فهم يزعمون استحالة الحصول على المواد الضرورية لإتمام النتائج التى أمكن الحصول عليها بتمحيص القوانين التاريخية المأخوذة من تاريخ الغرب إلا بالتدقيق فى تاريخ الشرق الأقصى . ولكن قد ثبت فى الأزمان الأخيرة أن الهند وقعت فى تأثير حضارة الشرق الأدنى (نشأت الحروف الهجائية السنسكريتية من الشرق الأدنى) ، ووقعت الصين فى تأثير الهند . ولكن كانت علاقة الشرق الأقصى بالشرق الأدنى أبعد من علاقة الشرق الأدنى بأوربا ؛ فيلزم أن تُعد حضارته حضارة مستقلة . وقد دامت التقاليد المدنية القديمة فى الصين والهند بدون انقطاع رغم التأثيرات الدخيلة والحركات الداخلية . وأما الشرق الأدنى فلم يوفق إلى قراءة الهيروغليفية المصرية والكتابة الأشورية والإيرانية فيه إلا الأوربيون .

إن تفوق الغرب بمعناه الواسع (أعنى الشرق الأدنى وأفريقيا الشمالية وأوربا معاً) على الشرق الأقصى يُفسر بكثرة ماوقع من التبدل فى

النصف الغربى من العالم القديم بالقياس إلى النصف الشرقى منه . وقد انتقلت طرق التجارة من سيطرة الشرق الأدنى إلى سيطرة الأوربيين . واحتفظ الغربيون بتلك الطرق من عهد الفنيقيين إلى زماننا هذا . وليس للتاريخ علم بأن قوماً خرجوا من الهند أو الصين وحاولوا أن يسيطروا على طرق التجارة الخارجية التى تملكها الممالك الغربية ويدخلوها فى سلطانهم السياسى والاقتصادى .

ويمكن أن يُعد اليوم من الحقائق الثابتة أن العلاقات المتبادلة بين الأقوام من أكبر عوامل الرقى . ولا يمكن إيضاح تقدم الشعوب المختلفة أو تأخرها بما لها من ميزات جنسية ومعتقدات دينية أو ما تحيط بها من الطبيعة ، بل بموقعها الذى أحرزته فى علاقاتها مع شعوب متباينة فى مختلف عصور تاريخها . فمهما كانت الأقوام المنسوبة إلى الجنس الهندى الأوربى متفوقة على غيرها من الأجناس ، فإنها لو عاشت عيشة منعزلة عن الأجناس الأخرى ، كحالة اللتوانيين إلى القرن الثالث عشر أو فى صورة من المعيشة كمعيشة قبائل ال « كافر » على جبال « هندوكُش » حتى نهاية القرن التاسع عشر ، لظلت متوحشة حتى اليوم . ومهما كانت مزايا النصرانية بالقياس إلى الإسلام ؛ فإن حضارة العالم الإسلامى ما فتئت متفوقة على الحضارة المسيحية حينما كانت تجارة العالم بأيدى المسلمين . ومهما بلغت مزايا أوربا فى إقليمها وطبيعتها وموقعها الجغرافى بالقياس إلى القارات الأخرى ؛ فإن هذه المزايا ما ظهرت إلا بعد أن أخذت

أوربا تشغل الدرجة الأولى فى العلاقات المدنية . وكذلك الحضارة الإسلامية ؛ فإن تقدمها أو تأخرها يثبت بالعوامل التى ذكرت آنفاً أكثر مما يثبت بتعاليم هذا الدين أو بالخواص الجنسية للأمم الإسلامية المختلفة[1].

---

(١) بدل أن يجعل العوامل الرئيسية فى رقى الأمم الجنس أو البيئة الجغرافية أو الدين كبعض العلماء ضيق النظر الناظرين إلى جهة واحدة ، أظهر بارتولد بعقل المؤرخ ، عوامل هذا الرقى المختلفة ولا سيما أسبابه الاقتصادية . إننا نشاهد أن هذا المؤرخ الجليل لا يقبل ادعاء بعض العلماء بتفوق الأقوام الهندية الأوربية أصلا على غيرهم من الأقوام — وهو ادعاء ليست له ماهية علمية — . إلا أننا لا نقدر على المضى بدون تصحيح هفوة صغيرة لمؤلفنا وهى : أن الأقوام الهندية الأوربية أو الأقوام الهندية الجرمانية كما يقول الألمان ، لا يكونون وحدة بمعناها الأنتروبولوجى Antropologique ولا يدل هذا التعبير إلا على وحدة لغوية . وقد جاءت براهين المؤلف دافعة للنظرات الضيقة التى تحاول أن تجعل الدين الإسلامى مسئولا عن تأخر الأمم الشرقية فى العصر الأخير .

محمد فؤاد كوپريلى

الفصل الأول

الشرق المسيحى وخطورته للإسلام

نشأ مع المسيحية ، على رأى توريانف الأستاذ الروسى المتخصص فى تاريخ الشرق الأدنى ، أسلوب جديد للنظر إلى الدنيا . وشرع هـذا الأسلوب فى نزاع موفق مع الوثنية اليونانية والرومانية والوثنية الشرقية على السواء ، وقبل أن يتم هذا التجديد الذى بدأ فى الشرق مع المسيحية ، نشأ دين جديد مزاحم له .

ولم ينحصر نزاع المسيحية مع الوثنية فى دائرة دينية ؛ فقد كان أكثر المبشرين من النصارى يكرهون العلوم والفنون المتصلة بالعقيدة الوثنية . ولم يكن عند نصارى القرن العاشر المؤمنين بقيام الساعة بعد زمن قليل ، ما يدعو إلى الاهتمام بشئون الدولة وتقدم الحضارة مادياً وأدبياً .

ومع أن الكنيسة كانت سبباً لسقوط العلم والفن اللذين كانا يُفهمان عند طبقة خاصة ، فإنها أفادت من جهة أخرى فى رفع مستوى سواد الناس . لقد وزعت الكنيسة الكتب الدينية على أقوام كثيرين بعد أن كتبتها بلغاتهم القومية التى يفهمونها . ومن المعلوم أن الأدب القومى انتشر كثيراً بعد أن كان محصوراً فى أماكن قليلة .

وكانت الأحوال فى الولايات الأسيوية ومصر أكثر ملاءمة منها فى ولايات الدولة الرومانية الأخرى (ولا سيما بعد أن صارت الدولة فى أيدى برابرة الجرمان ، وزُلزلت بلاد البلقان حتى استانبول بتعرضها لهجمات السلافيين) .

وأنشئت فى الشرق الأدنى ومصر فى عهد الحضارة اليونانية مدن عظيمة كسفت المدن القديمة سعة وعمراناً . فكانت مدينة الإسكندرية بمصر ، وإنطاكية بسوريا ، وسلوقية ، (سلفقية - سلفكه) على شاطئ دجلة ، تلى مدينة روما إتساعاً . وشرع مبشرو النصارى فى نشر الدين بين طبقات الوطنيين الدنيا المقيمين فى المدن الكبيرة التى أنشأها اليونان . ووجدت كتب جديدة مؤلفة أو مترجمة فى اللغات المحلية ، ولا سيما السريانية والقبطية ، مع تأليف كتب دينية باللغة اليونانية الدولية . وبدت الآداب النصرانية فى اللغات الأخرى أيضاً مسايرة انتشار النصرانية خارج الإمبراطورية الرومانية (فى اللوبية والحبشية فى أفريقية ؛ والأرمنية والكرجية فى آسيا وغيرها من اللغات) . وهناك كتب بقيت من القرن السادس تدل على أن اللغة العربية أيضاً استعملت لغة الكنيسة ولكن لم يثبت إلى الآن وجود أدب نصرانى عربى فى العصور التى قبل الإسلام .

إن انتشار النصرانية فيما بعد ونجاحها الكثير فى الحضارة مرتبط بالمنازعات التى كانت بين روما وإيران ارتباطاً وثيقاً . وكان أكثر

هذه المنازعات يحدث فى حوض دجلة والفرات فكان أمراء هذه المناطق وولاتها ينتقلون إلى هذا الجانب حيناً وإلى ذاك حيناً آخر باختلاف طالع الحرب .

ولمدينة أدسَّه (الرُّها العربية وأورفه الحالية) الواقعة شرقى الفرات على الطريق الآتية من سوريا الشمالية ، موقع ممتاز فى تاريخ النصرانية وحضارة سوريا . وكان أبگر التاسع (١٧٩ — ٢١٦ م) ملك أدسَّه أول من تنصر من الملوك . وتروى أسطورة النصرانية أنه عاش فى أيام عيسى عليه السلام وراسله . وأدسَّه وطن خطير لحضارة سوريا القديمة ، ومنشأ الكتابة السريانية . وقد ازدهر فيها فى القرن الخامس مذهب يدعى « مدرسة اللاهوت الإيرانية » أثرت كثيراً فى انتشار النصرانية وتقويتها فى إيران . ومن قبل هذا نشأ فى أدسَّه الكاتب السريانى بردسان (١٥٥ — ٢٢٢ م) . ولد بردسان وثنياً ثم تنصر ثم ارتد إلى الوثنية ثانياً . وحاول التأليف بين الفلسفة الوثنية المسماة الغنوستية Gnosticisme وبين بعض آراء النصرانية ؛ وهو أوّل ممثل لمذهب معاد للعهد العتيق عداء شديداً . ولا ريب فى أن آراءه قد أثرت فى المانوية التى ظهرت فى إيران فى القرن الثالث[1] .

---

(١) عانت المسيحية أزمتين كبيرتين فى القرنين الثانى والثالث ، إحداهما أزمة الغنوستية gnosticisme والأخرى الأزمة المونتانية montanisme . لقد شعر بارتولد بالحاجة إلى إيضاح بسيط للأزمة الأولى لعلاقتها الوثيقة بتاريخ الشرق والإسلام . فالغنوس gnos معناها « المعرفة العالية ذات الأسرار » ، وتسمى العقائد الدينية والفلسفية المختلفة التى تتصل بـ « غنوس »

واضطر مبشرو النصارى أيضاً إلى استخدام الأدلة الفلسفية فى نزاعهم الغنوستية . وفى العهد الجديد إشارات ضد هذه المعتقدات التى كانت قبل المسيحية . ومع وجود أسرار مشتركة بين الغنوستيين الذين يؤمنون بوقوفهم على معرفة عالية ذات أسرار لا يطلع عليها غيرهم ، فإن هناك مذاهب غنوستية قد نشأت من أصول مختلفة ومتميزة عن بعضها من حيث عقائدها . ونشاهد تحت هذا الاسم مذاهب مختلفة نشأت من الوثنية واليهودية والمسيحية ، اختلطت عقائدها بعضها ببعض ونشأت من أصول قديمة جداً ؛ فيمكن أن نجد فى العقائد الغنوستية كثيراً من العقائد الدينية المأخوذة من ديانات بين النهرين وإيران وفنيقية ومصر ؛ فالغنوسى فى الحقيقة هو تيوزفى théosophic يحاول إيصال الروح إلى العلاء بإنقاذها من ضيق العالم الجسمانى أو الشياطين أو النجوم . وقد أظهر بعض كبار الغنوستيين من النصارى أمثال باسليد Bacilide وفالنتين ومارسيون تطوراً حديثاً فى الغنوستية متأثرين بفلسفة اليونان وتصوفهم ، ونفوذ العقائد المسيحية ، عوضاً عن العناصر الشرقية . فقد أحدث فالنتين مثلا ، مذهباً فلسفياً دينياً ونظرياً متأثراً بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة وقريباً جداً من العقائد النصرانية . وفى الجملة فإن ثمة فرقاً شاسعاً بين ثنائية الغنوستيين وثنائية المزديين (أى الزردشتيين) ؛ فأما فى المزدية فكلا العالمين المتقابلين أى عالم النور وعالم الظلمة جسمانيان (ماديان) وروحانيان (معنويان) معاً . وأما فى ثنائية الغنوستيين فعالم النور معنوى وعالم الظلمة جسمانى .

ويجب نقد وتصحيح المعلومات التى سردها بارتولد عن بردسان من بعض الوجوه . لقد تربى هذا الرجل الذى ولد بأورفه (فى ١١ تموز سنة ١٥٤ م) من أسرة أربيلية ، مع الأمير أبكر الذى حكم فى أورفه (١٩٩ — ٢١٤ م) وتنصر مع رعاياه عام ٢٠٦ م . ويروى أنه قبل عقائد فالنتين الغنوستية بعد أن تنصر ثم ترك كثيراً منها ورجع إلى العقائد الأرثوذكسية وتوفى سنة ٢٢٢ م .

وبناء على التحقيقات الأخيرة لمؤرخى النصرانية الباحثين فى هذه المسألة خاصة لا يجوز عده غنوستياً حقيقياً مطلقاً ؛ فبناء على رأى ف . ناو F. Nau الذى أبداه فى نهاية القرن التاسع عشر تعد عقائده تنجيمية أكثر منها غنوستية . هذا ما يدعيه بعض المراجع القديمة ومن أهمها دعوى أغابيوس Agapius . ويشترك ف . هآس F. Haase وهو أكثر العلماء شهرة بالاشتغال فى هذه المسائل بعد F. Nau ، فى آراء هذا الأخير مبدئياً مع استنكاره لبعض آرائه .

وقد اعتبر بارتولد ، الذى يظهر أنه لم يطلع على هذه التمحيصات ، بردسان رجلا غنوستياً كما اشتهر من قبل ، وعده ثنائياً متبعاً رأى مؤلف كتاب الفهرس ، كما وجد علاقة كبيرة

مع الفلسفة الوثنية والفلسفة الغنوستية . فظهرت مذاهب دينية فلسفية متنوعة ، كان أعظمها فى الإسكندرية وإنطاكية . فأما المذهب الذى فى الإسكندرية فيعتمد على أفلاطون ، وأما الذى فى إنطاكية فيعتمد على أرسطو . وفى القرن الرابع ابتدأت المنازعات الدينية فى بنية النصرانية نفسها ، فوقع خلاف بين نصارى الشرق منذ القرن الخامس ؛ وقد حدث الخلاف فى الكنيسة عندهم قبل نصارى أوربا ، فانفصل كثير منهم عن المذهب الأصلى المسمى الأرثوذكسية (يجعله خصومه مشتقاً من كلمة ملك ويسمونه ملكياً ويفهمون الناس أنه مذهب الإمبراطور الرسمى) . وافترق اليعاقبة الذين لا يعترفون لعيسى بغير الألوهية ، والنساطرة الذين يرون استحالة التفريق بين ألوهيته وإنسانيته وكون مريم أم الله . وارتحل النساطرة الذين تعرضوا للاضطهاد إلى إيران . وكان النصارى مضطهدين فى إيران حتى هذا العهد .

بين عقائده وعقائد المانوية. وهذا التشابه الذى رضى به مؤلفنا قد سبق أن ذكره ماروتا . (انظر فى هذا الموضوع M. Ad. Franck فى Dictionnaire des sciences philosophique طبع باريس سنة ١٨٨٥ ؛ وكتاب C. Clement المسمى Religions du monde طبع باريس سنة ١٩٣٠ فيما يختص بالنصرانية ؛ وكتاب E. de Faye المسمى Gnost.que et Gnosticisme طبع باريس سنة ١٩٢٥ ، وفى هذا الكتاب الأخير معلومات واسعة عن المراجع . وانظر مادتى Bardesane و Bardesanttes فى الجزء الذى ظهر سنة ١٩٣٠ من كتاب Dictionnaire d'histoire et de géographie ecclésiastique

محمد فؤاد كوپريلى

وفى عام ٤١٠ وفقوا لعقد مجلس فى مدينة سلوقية الواقعة على شاطئ دجلة . وقبل نصارى إيران معتقدات النساطرة فى اجتماع دينى عقد سنة ٤٨٣ م . وفى عام ٤٨٩ هرب نصارى أدسَّه إلى إيران . وكان الإمبراطور زينو Zeno أغلق المدرسة الإيرانية التى كانت بأدسّه بسبب الآراء النسطورية . وصارت إيران فى عهد الساسانيين فى القرن الخامس ملجأ لجميع العناصر المتحضرة المطرودة من بوزنطة من المجوس واليهود وروافض النصارى . وقد حمل الساسانيون من قبل هـذا كثيراً من السوريين المقيمين بمدن سوريا إلى إيران . نُقل فى المرة الأولى سكان إنطاكية و بعض مدن أخرى فى زمن شابور الأول (٢٤١ — ٢٧٢ م) الذى أسر الأمبراطور ڤلريان Valérien فأسكنهم شابور فى مدينة جنديسابور التى أنشأها فى خوزستان . ولم تكن جنديسابور مدينة كبيرة فى زمن الساسانيين . وأسست فيها فى عهد خسرو الأول (كسرى أنو شروان ٥٣١ — ٥٧٩ م) مدرسة طب يونانية سورية لها فيما بعد تأثير فى العرب .

وكانت الغاية من حمل سكان المدن السورية إلى إيران كأنهم أسرى أن يعاونوا ترقية الصناعة فى إيران ، ولا سيما صناعة النسيج . وقد استفاد الساسانيون من صناع روما المأسورين أيضاً فى إنشاء الحصون وتنظيم أعمال الرى .

تؤدى المقارنة بين بوزنطة و إيران الساسانيين من القرن الخامس إلى

السابع إلى هذه النتيجة : إن مستوى الحضارة فى بوزنطة أعلى ولكن كانت إيران مملكة ترقَّ أكثر منها . ولم يكن هذا الترقى ملائما لأغراض الملوك ملاءمة تامة . ولترقى الساسانيين فى القرن الثالث علاقة برد الفعل الدينى والسياسى . إذ أن دخول الحضارة الغربية فيها كان يقلق دين الدولة ويؤثر فى نظام الطبقات . وقد نشأ فى إيران مذهب نصرانى رسمى استخدم اللغة الفارسية فى العبادة . وكان لهذا العمل تأثير فى دخول النصرانية فى آسيا الوسطى والصين وفى مستقبل إيران . ولا يزال أسماء الأيام التى أدخلها الفرس النصارى — لا العرب — مستعملة إلى اليوم عند الإيرانيين المسلمين .

وحوالى نهاية القرن الرابع تغير نظام الطبقات تغيراً تاما فاتحد الزراع والصناع والتجار ، ونشأت منها طبقة ثالثة وهى طبقة العمال المدنيين التى شغل رؤساؤها مكانا إلى جانب عرش الملك مع الرؤساء الروحانيين ورؤساء الارستقراطية العسكرية .

وبدأت حملات الجماعات الشعبية تمتد إلى مدى أبعد فتحبذ ، ضد نظام الطبقات الضيق ، الآراء المزدكية الشيوعية التى لا تكتفى بإنكار الملكية الخصوصية فحسب بل تنكر الأسرة كذلك[1] .

---

(١) انظر فيما يختص هذه المسائل والمزدكية كتاب A· Christensen المسمى L'Iran sous Sassanides طبع كبنهاج سنة ١٩٣٦ ؛ وكتاب le Règne du roi Kawâdh I et le Communisme Mazdakite للمؤلف نفسه .

محمد فؤاد كوبريلى

إن القرن السادس الميلادى الذى هو عصر انحطاط التقاليد البوزنطية على وجه عام ، كان عهد التعارف بين الإيرانيين والأدب والعلم الأجنبيين. وفى هذا العصر ترجم إلى الفارسية قصص كليلة ودمنة التى أحضرت من الهند ، وأثرت فى آداب العالم . وابتدأ البحث فى فلسفة اليونان فى إيران . وقدم فارس پول إلى خسرو الأول كتابه عن أرسطو باللغة السريانية وهو يحاول فى هذا الكتاب إثبات تفوق العلم على الدين ؛ فالعلم فى نظره بعيد عن الشبهة ومنتج للاتفاق والوئام بين الناس بينما يبحث الدين فى أمور مجهولة ويوقع الشقاق بين الناس .

وبلغت التجارة والصناعة فى أيام الساسانيين أوجها فى القرن السابع قبيل هجوم العرب . وفى هذا العصر أيضاً كتبت آداب المانوية والنصرانية باللغة الإيرانية المستعملة فى آسيا الوسطى (الصغدية) والتركية . كل هذا يدل على أن دعاية دينية قوية قد انتشرت من إيران . وينبغى أن نذكر أن المبشرين اقتفوا أثر التجار . وفى هذا العهد نفسه ظهرت جاليات فارسية ونصرانية فى الهند .

وقبل فتوح العرب استمرت حروب بين بوزنطة وإيران مدة طويلة (٦٠٤ — ٦٣٠) وانتقلت جميع ولايات بوزنطة الأسيوية ومصر إلى حكم إيران لمدة قصيرة . وكان والى إيران ، حاكم هذه الولايات ، يقيم فى الإسكندرية التى أضرت بها الحرب أقل مما أضرت بمدن سوريا . وقد أخذت أنطاكية فى الانحطاط منذ القرن السادس من

جراء الزلزال الشديد الذى وقع فى سنة ٥٢٦ م ، وهجوم الإيرانيين فى عام ٥٤٠ . وعمّرها الإمبراطور جوستينيانوس ولكنها لم تستطع أن تسترد مكانتها القديمة . ودمر الإيرانيون مدن سوريا فى القرن الخامس وقطعوا أشجار الزيتون وبقيت آثار التخريب ظاهرة فيها بعد مائة عام . ولا بد أن تكون آسيا الصغرى قد أصابها الضر كذلك من استيلاء الإيرانيين عليها حينما توغلوا حتى استانبول . ولما مال طالع الحرب إلى الإمبراطور هرقل خربت حدود إيران من هجمات البوزنطيين وحلفائهم الخزر بتلك الصورة نفسها . ولم تكتف معاهدة الصلح بأن أعادت إلى بوزنطة بلادها التى أخذت منها، بل أكسبتها بلادا جديدة فيما بين النهرين [1] .

---

(١) إن هرقل الذى حارب الساسانيين فى أعوام ٦٢٢ — ٦٢٨ الميلادية ثلاث حروب موفقة انتصر عليهم فى أواخر سنة ٦٢٧ م بجوار الموصل نصراً مبيناً وترتب على هذا الانتصار إمضاء الصلح بعد خلع خسرو وقتله وانتقلت سوريا وفلسطين ومصر إلى سلطان بوزنطة مرة أخرى ، ونال هرقل لقب باسيلوس رسمياً للمرة الأولى (٦٢٩ م) ؛ وهذا اللقب لم يعد يحمله بعد هذا التاريخ ملوك الساسانيين الذين كان لهم حق حمله بتصديق من البوزنطيين . وإن هذا الحادث الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم أيضاً ، لأحد الأحداث الخطيرة فى القسم الأول من القرون الوسطى إذ قد أوشكت أن تنهار إحدى القوتين اللتين ظلتا متصارعتين قروناً عديدة للحصول على التفوق فى السيطرة على الشرق .

هذا وقد أخذت فى الانهيار بسرعة دولة الترك الأوارية التى كانت تهدد حدود بوزنطة عند نهر دانوب . وهكذا ظهرت بوزنطة فى ٦٢٩ م كأكبر قوة سياسية وعسكرية فى الشرق الأدنى بدون مزاحم ، إلا أن حادثاً غير منتظر ، وهو ظهور الإسلام والسيطرة العربية ، انتزع من يد هرقل ثمرات انتصاره على إيران فى السنين الثمانية الأخيرة من حكمه . (انظر A.A. Vasiliev فى كتابه Histoire de l'empire byzantin طبع باريس سنة ١٩٣٢ ج ١ ص ٢٦٠ — ٢٦٤ ؛ ٢٧٥ — ٢٧٩ ، ، وشرحت هنا العوامل التى تسهل فهم هذا الاستيلاء الذى ظهر فى الوهلة الأولى معجزة لعدم الاطلاع على أحوال بوزنطة الداخلية ، وذكرت بحوث خطيرة فى هذا) .

محمد فؤاد كوپريلى

سببت هذه الهزائم سقوط كسرى پرويز (خسرو الثانى) ٦٢٨ م واضطرابات طويلة داخلية فى إيران ، ولكن بوزنطة ضعفت أيضاً بالحروب. وبدأ اضطهاد الوثنيين واليهود والروافض باستتباب الحكم البوزنطى فى البلاد المستردة ؛ فصار هؤلاء المضطهدون جميعاً حلفاء طبيعيين للعرب . واضطر البوزنطيون حتى فى حياة هرقل الذى مات سنة ٦٤١ م إلى التخلى للعرب عن جميع الأراضى التى استولوا عليها ما عدا آسيا الصغرى . ولم يقاوموهم مقاومة حسنة إلا فى أماكن قليلة . وفتحت مصر قوة مؤلفة من أربعة آلاف جندى ، كما أن سهولة الاستيلاء على شمالى ما بين النهرين حيّرت الفاتحين أنفسهم .

إن أظلم عصور الأدب البوزنطى والديانة المسيحية هى العصور التى بين أوائل القرن السابع ومنتصف القرن التاسع . وقد ألف الناس عزو أسباب هذا الانحطاط إلى حروب بوزنطة مع الإيرانيين والعرب والثورات التى أعقبتها مباشرة . ولا ريب فى أن خروج أرق الولايات من حكم بوزنطة لم يكن خالياً من التأثير على حياتها . وقد اتسعت حدود الخلافة نحو آسيا الصغرى رويداً رويداً وتعرض شبه الجزيرة هذا الذى أنجب فى القرن السادس النابغين الذين بنوا آيا صوفيا ، لعدة هجمات مهلكة .

وكانت البلاد التى دخلت فى حدود الخلافة خيراً منها حالا رغم الفتن التى فيها ، وكان النصارى أحسن حالا تحت حكم المسلمين فى الأزمان الأولى ، لحاجة الفاتحين إلى هذا العنصر المسيحى المتفوق على العرب حضارة .

وقد نبغ فى مصر وسوريا وما بين النهرين رجال علم وأدب من الطراز الأول فى الآداب السريانية واليونانية فى القرن الأول الإسلامى . وليعقوب الأدسى (٦٤٠ — ٧٠٨ م) الذائع الصيت من بين أولئك العلماء مكانة خاصة ممتازة فى المذهب اليعقوبى . وصارت شواطىء الفرات بعد استعادة مكانتها القديمة إحدى مراكز حضارة العالم . وقد كانت فيها مدارس عليا لليهود والمانويين زيادة على مدارس المسيحيين العليا . إن الشعوب التى عاشت فى حكم المسلمين ، استفادت فى نشر الدين من العلاقات التى اتّسعت بتكون الدولة الإسلامية الممتدة على قسم كبير من العالم ، أكثر من المسلمين أنفسهم ، كما أن انتشار النصرانية والمانوية فى بلاد المغول ، واليهودية والنصرانية فى القوقاز وشواطئ ڤولجا يعود إلى العصر الإسلامى .

وليست خطورة هذا العهد من حيث الفن المسيحى واضحة كثيراً ومما لا شك فيه أن ملوك المسلمين استخدموا المهندسين من المسيحيين والإيرانيين فى بناء القصور والمساجد . وحوّل بعض الكنائس الكبيرة إلى جوامع . ومن تلك الجوامع ، الجامع الكبير الذى بنى فى القرن الثامن فى مكان كنيسة يوحنا المعمدان بمدينة الشام . ومن حسن الحظ أن هذه الكتابة الإغريقية المنقوشة على الباب الجنوبى للكنيسة باقية إلى اليوم وهى « يامسيح ، إن سلطنتك لكل زمان وحكمك لكل جيل » ، وقد حافظ النصارى فى الجملة على معابدهم ، و بنوا كنائس وأديرة جديرة بدون أن يتعرضوا لمقاومة . وأما ما يقال من أن الخليفة عمر منع النصارى من بناء

كنائس جديدة و إصلاح الكنائس القديمة فمختلق فيما بعد .

وكانت فى بلاد الخلافة الممتدة من رأس سان ڤنسنت الواقعة جنوبى البرتغال إلى سمرقند مؤسسات مسيحية غنية ، قد حافظت على أملاكها غير المنقولة الموقوفة عليها . وكان نصارى بلاد الخلافة يتعاملون مع عالم النصرانية بدون مشقة ، و يتمكنون من أن يتلقوا منهم إعانات لمؤسساتهم الدينية. وكان فى المؤتمر الدينى الذى انعقد فى القسطنطينية فى سنة ٦٨٠ — ٦٨١م مندوب من القدس أيضاً . ثم إن المسيحيين المقيمين ببلاد الخلافة كانوا مرتبطين بعضهم ببعض ارتباطاً وثيقاً . ولم يزدهر الفن فى أزمان الفتوح إلا فى مصر . وقد بحث الخلفاء عن وسائل ترقية الفن فى سواحل عكا وصور خاصة . وقبيل سنة ٧٢٠ م عادت الفلسفة اليونانية من الإسكندرية إلى أنطاكية .

وعاون النصارى المسلمين ، منذ النصف الأخير من القرن الثامن ، على دراسة الفلسفة اليونانية . ويروى أن الخليفة المنصور (١٣٥ — ١٥٨ هـ = ٧٥٤ — ٧٧٥ م) طلب إلى الإمبراطور أن يرسل إليه مخطوطات فى العلوم الرياضية . وقد أقام حنين بن إسحاق أحد أكابر المترجمين من اليونانية إلى السريانية ، نحو سنتين فى بوزنطة ، وتعلم اللغة اليونانية وأدبها ثم رجع منها بمخطوطات . وكان للمسلمين طريق آخر غير بوزنطة لتلقى العلوم اليونانية وهو مدرسة الطب التى بجنديسابور (شابور) والتى بقيت قروناً عدة بعد فتح المسلمين . وهناك

مع هـذا رواية تدل على حفظ أطباء جنديسابور لعلومهم بواسطة رجالهم جيلا بعد جيل وإخفائها عن الأجانب . وأما تيوفيلوس الفلكى الرُّهاوى (الأدسى) الذى أقام فى قصر المهدى (١٥٨ — ١٦٩ هـ = ٧٧٥ — ٧٨٥ م) وترجم الألياذة والأدسة إلى اللغة السريانية فلا يُعلم أأقام فى بوزنطة أم لم يُقم .

إن العناصر غير العربية وغير الإسلامية من العناصر المقيمة فى بلاد المسلمين ، كانت أكثر تنوّراً بالقياس إلى العرب والمسلمين . وإدراك هـذه العناصر تفوقها على العرب حضارة أنتج بعض آراء قومية فى العالم الإسلامى عرفت باسم الشعوبية . وكانت الحملة القائمة على هذه الصورة لإنهاض الحضارات القومية أو الدينية ظاهرة على هذه الشاكلة فى الأمم الأخرى : بين النصارى المؤلفين من أقوام مختلفة ، واليهود والإيرانيين الزردشتيين ، وعند آخر الممثلين للوثنية الإغريقية فى مدينة « حران » فيما بين النهرين . وكان القرن التاسع عهد رقى لحضارة بوزنطة أيضاً إلا أن بلاد الخلافة كانت متفوقة على بوزنطة فى أن العناصر المختلفة كانت تعمل فيها جنباً لجنب ، وكانت ساحة انتشار الحضارة أوسع ، لضروب من الحرية الدينية التى يمنحها القرآن . ومع ذلك لم يكن سعى كل فريق منهم لإنهاض شعبه ودينه مانعاً من تلقى دروس الحضارة بعضهم من بعض ؛ فكان للنصرانى طلبة من المسلمين والمجوس كما كان عكس هـذا . إن النصارى كانوا أقرب إلى الإغريقية (هلنيزم) منبع

العلم ، إلا أنهم لم يثابروا على المحافظة على تفوقهم هـذا . فقد استأنسوا بالمؤلفات اليونانية قبل المسلمين وأجادوها أكثر منهم ، غير أن ترقية هذا العلم و إبداع نماذج للدراسات العلمية من بعد ، استأثر به المسلمون ؛ فلم يقدر السريانيون ، وهم أرقى الشعوب النصرانية فى الشرق ، على أن ينجبوا عالماً واحداً يصح مقارنته بالفارابى وابن سينا والبيرونى وابن رشد . وكان المسلمون فى أكثر الأحيان من خير طلبة علماء النصارى والوثنيين .

و بتقدم الحضارة العربية فقد نصارى سوريا علاقتهم بالإغريقية التى كانت ضامنة لتفوقهم سابقاً ؛ فأعطيت اللغة العربية وأدبها فى برنامج تعليمهم العالى مكان اللغة الإغريقية وأدبها فيما سبق .

ولكن لا ينبغى أن يظن ، نظراً إلى هذه الحال ، أن الحياة النصرانية المدنية الشرقية فقدت خطورتها وتأثيرها فى سير حضارة العالم بعد ازدهار الحضارة الإسلامية ؛ فإن تفوق المسلمين فى العلم والعمل ظل مدة طويلة تفوقاً فى الكيفية لا فى الكمية ؛ فكانت الأعمال الفكرية كالكتابة والطبابة فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى لا تزال فى أيدى النصارى وكانت التجارة والصناعة فى أيدى اليهود . وتفاهمت المذاهب المختلفة فى سوريا فى القرن الثانى عشر ، فحدث تقارب بين مذهبى النساطرة واليعاقبة وهما أكبر هذه المذاهب شأناً ؛ فأخذ كل منهما يتسامح مع الآخر بالرغم من محافظة كل واحد منهما على معتقداته وعباداته .

وأخذت حالة النصارى التابعين للدول الإسلامية تسوء منذ منتصف

القرن الثالث الهجرى . وكان إحدى أسباب هذه الحالة تناقص حاجة المسلمين إلى النصارى بتقدمهم فى الحضارة . وربما كان للاضطهادات التى وقعت على المسلمين واليهود فى بلاد النصارى فى القرون الوسطى ، أثر فى هـذا . ومهما يكن من شىء فإن النصارى الذين عاشوا فى حكم المسلمين لم يصبهم قط ما أصاب المسلمين فى أسبانيا من الظلم والعدوان . ولم يكن ، بوجه عام ، يُطلب إلى الأقوام غير الإسلامية تنفيذ الشروط حرفياً كارتدائهم ثوباً مميزاً لهم طبقاً لما ورد فى عهد عمر المشهور ، أو دفعهم الجزية كما يأمر به القرآن . فكان العمال النصارى يلبسون أثواباً كأثواب عظماء المسلمين ، ويجعلون لأنفسهم مقاماً عالياً أمام العامّة . وكانت مغالاة النصارى وترفعهم على هذه الصورة تسبب ارتفاع الأصوات بالاستنكار ، وتصل أحياناً إلى نهب أموالهم ، بل قتل بعضهم . وفى خلال الشغب تُهدر حقوق الذميين أكثر من حقوق المسلمين ؛ ففقدت الكنيسة رويداً رويداً عقاراتها وهى أعظم ثروتها . وكانت الكنيسة فى مصر تملك فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر م) ١١,٢٥٠ فداناً من الأرض وذلك بعد مصادرات عديدة . اختفت النصرانية من بلاد إيران اختفاء تاماً إلا فى الزاوية الغربية القصوى ، وكيفية هـذا الاختفاء مجهولة إلى الآن . لم تختف النصرانية أوّلَ الأمر اختفاء تاماً إلا فى أفريقية الشمالية ، فى البلاد الواقعة غربى مصر من البلاد الداخلة فى حدود الإمبراطورية الرومانية ، إلا أن أسماء البلاد الباقية من العهد اليونانى والرومانى ظلت محفوظة

(مثل طرابلس وهو اسم Tripoli ومقاطعتها وقُسنطينة فى الجزائر Constantin . وليس سبب اختفاء النصرانية فى هذه البلاد أيضاً واضحاً .

ويمكن تفسير ذلك بعض التفسير بأن تعرض شمال أفريقية لهجمات العرب كان أكثر من تعرض البلاد الأخرى . وكذلك تعرضها لغارات البدو فى منتصف القرون الوسطى (فإن مدينة قرطاجنة التى أعاد الرومان بناءها والتى صارت ، على رواية ، إحدى المدن الرومانية المهمة بعد روما ، دمرها العرب فى القرن السابع ولم تستطع النهوض بعد ذلك) .

إن البلاد التى رجعت إلى حكم المسيحيين بعد الفتح الإسلامى والتى لم تزل محافظة على آثار الحضارة الإسلامية ، لجديرة بأن يبحث فى تاريخها بحثاً مستقلاً . هذه البلاد هى أسبانيا التى كانت لملوك قشتالة ، والتى ألف فيها لألفونس العاشر فى منتصف القرن الثالث عشر جدول الهيئة المشهور ؛ وصقلية وجنوب إيطاليا التى كانت فى أيدى النورمانديين ثم صارت إلى أسرة هوهنشتوفن ؛ ومملكة الكرج فى القرون الثلاثة من القرن الحادى عشر إلى الثالث عشر . وأما بلاد أرمينية والكرج فقد ألفتا فى القرن السابع هيئتين مختلفتين وحافظتا على علاقاتهما بالعالم اليونانى بالتأثير الدينى ولكنهما لم تنجوا من تأثير الحضارة الإسلامية (العربية والفارسية) ؛ فإن كلاً من الأدب الأرمنى والأدب الكرجى

يمت بقرابة إلى الأدب الفارسى [1] . وقد حافظ أفراد الشعب فى الجملة ، بالرغم من عدم ملاءمة العوامل المحيطة بهم كثيراً ، على تقاليدهم الدينيـة وبعض تقاليدهم الحضارية محافظة قوية حتى بعد فقدهم الاستقلال السياسى . وفى القرن السابع عشر نقل الشاه عباس كثيراً من الأرمن والكرج عنوة لأغراض حضاريّة كما فعل الساسانيون بالسوريين قبلاً . وقد أخذ الأرمن يتقربون من الحضارة الأوربية فى القرن السابع عشر ؛ وأما الكرج فأحسوا بتأثيرها فى القرن الثامن عشر .

ورأى الأوربيون المقيمون فى سوريا ومصر مسيحيي هذه البلاد حلفاءهم الطبيعيين ؛ فأقاموا فى أديرتهم زمناً طويلاً وتعلموا اللغة العربية ، استعداداً للتعارف مع الشعب والبيئة عن كثب ؛ فلذا نشر وترجم فى أوربا فى القرن السابع عشر كتب المكين وأبى الفرج مؤرخى القرن الثالث عشر من نصارى العرب قبل نشر المؤرخين المسلمين .

---

(١) تأثر الكرج والأرمن بعد الإسلام والعرب والفرس أولا ثم تأثروا بالأتراك تأثراً شديداً . ولكن لم يميز الباحثون فى هذا الشأن إلى اليوم تأثير الفرس من تأثير الترك بل أسندوه إلى إيران أيضاً ، فى حين أن هذا التأثير ظاهر بوضوح فى اللغة والأدب وفى شعب الفنون الجميلة المختلفة وفى نظام الدولة منذ ظهور الدولة السلجوقية الكبرى حتى اليوم . وليست قصة « الفارس ذو الفروة النمرية » المشهورة التى ألفها شوتا روستافلى شاعر الكرج الأعظم فى القرون الوسطى متأثرة بإيران فقط بل هى متأثرة بالترك أيضاً . وانظر فى تأثير الأدب التركى فى الأدب الأرمنى مقالنا (تورك أدبياتنك أرمنى أدبياتنه تأثيرى ، أدبيات فاكولته سى مجموعه سى ، عدد ١ ص ١ — ٣٠ طبع استانبول سنة ١٩٢٢) .

محمد فؤاد كوبريلى

وفى الوقت نفسه بدأت نهضة أدبية فى نصارى العرب بتأثير أوربا، كما حدث عند الأرمن . لأنه لم يكن يفصل النصارى الشرقيين من الغرب اختلاف كاختلاف الدين الشاسع الذى يفصل المسلمين عنهم . ثم إنهم لم يكونوا قد تأثروا كثيراً بالأدب القومى غير الدينى . فلذا راج فيهم أدب اليونان، لا علمهم فقط ، إلى حد ما ، بعكس ماعند المسلمين سواء فى القرون الوسطى وفى العصور الحديثة . وقد ترجم سريانى نصرانى كتابى الإلياذة والأودسّه فى القرن الثامن ، وأما العربى النصرانى فنقل الالياذة إلى العربية فى القرن التاسع عشر . قال أحـــد علماء الروس إذ عاد من سوريا سنة ١٨٦٤ م : « إن نصارى الشرق متقدمون فى العلم تقدماً لا بأس به بالقياس إلى المسلمين » .

ويقول أحد مؤرخى الأديان من الروس وهو يحكى ما حدث فى زمن الحروب الصليبية : « إن الروحانيين والشعب يرون عودة ظلم المسلمين خيراً لهم من الحياة فى حكم اللاتينيين » . وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر التمس أرمن « اچماجين » من شاه إيران مرات عديدة حمايتهم من الدعاية الكاثوليكية . وأما تأثير الضغط الاقتصادى الذى يقوم به الأوربيون فى وقتنا هذا فيظهر فى المسيحيين كما يظهر فى المسلمين . وقد كتب صحافى مسيحى فى سنة ١٩١٢ مقالا فى الصحف العربية رداً على مقال كتبه أحد كتاب المسلمين محبّذا اتحاد المسلمين فقال : « يجب أن يتحد ضـــد الأوربيين جميع الأقوام الشرقية بدون النظر إلى الفروق الدينية ، لا المسلمون

فقط . ويجب أن نعمل للوحدة الشرقية لا الوحدة الإسلامية » . وأخذ المثقفون فى الشرق الأدنى كذلك يقدمون الاتحاد القومى على الاتحاد الدينى متأثرين بالآراء الأوربية ؛ فمن المحتمل أن يتحقق منذ الجيل الحاضر اتحاد العرب المسيحيين مع العرب المسلمين للتعاون على نهضة القومية العربية . ويستعمل أمين الريحانى ، أحد كتاب العرب فى زماننا ، عبارات للتعبير عن معتقدات المسلمين والنصارى وكتبهم المقدسة يعسر فيها معرفة الكاتب أمسلم هو أم مسيحى .

الفصل الثانى

الخلافة ومبدأ الحضارة العربية

نشأت فى العالم فى القرن السابع دولة عظيمة من شبه جزيرة العرب للمرة الأولى والأخيرة فى التاريخ ، وبدأت حركة جديدة . ولكن يُظن أن الساميين تدفقوا من جزيرة العرب بهذه الصورة فى عهد سابق للتاريخ وشغلوا سوريا ومابين النهرين ، وقد مُهد لحركة القرن السابع بحركات العرب الصغيرة التى امتدت من قبل خارج شبه الجزيرة ولكن لم تبلغ درجة الفتوح . وكانت البلاد الواقعة شرقى الفرات أسفل مصب نهر الخابور تسمى بلاد العرب منذ عهد قرطاجنة حوالى سنة ٤٠١ قبل الميلاد . كما أن المدن القبطية فى مصر العليا كانت نصف عربية منذ زمن استرابون حتى القرن الأول الميلادى . وقد اشترك عرب سوريا التابعون لبوزنطة وعرب حوض الفرات التابعون لإيران اشتراكا قوياً فى الحروب التى وقعت بين هاتين الدولتين .

وفى القرن السابع والقرن الثامن أدخل العرب تحت سلطانهم أقواماً كثيرين يفوقونهم حضارة إلى درجة لا تقبل القياس ، إلا أنهم لم يفقدوا قوميتهم كما فعلت الشعوب الجرمانية فى أوربا والمغول فى آسيا . بل أكثر من ذلك ، قد أدخلوا سوريا وما بين النهرين ومصر وأفريقية الشمالية

من البلاد التى استولوا عليها ، فى قوميتهم ، ولم تكن غلبة اللغة العربية بعد ذلك بسلطان الحكومة بل بالاختيار . وقد اضطرب نظام الخلافة المالى اضطراباً شديداً بانتشار الدين الإسلامى فى البلاد التى خضعت لسلطانها . وكان انتشار اللغة العربية فى الأقوام غير الإسلامية أمراً لا ترغب فيه الحكومة كثيراً ؛ فمنع تكلم النصارى اللغة العربية وتعلم أولادهم فى مدارس المسلمين . ورغم هذه الحال صار الإسلام ديناً رغب فيه أكثر الشعب ، واتخذت الشعوب غير المسلمة اللغة العربية لغة لها .

ويمكن تفسير رواج اللغة العربية هذا الرواج بأن العرب لم يعتمدوا على قوة السلاح فقط كالجرمان والمغول والإيرانيين القدماء ، ولكنهم نشئوا منذ القرن السابع الميلادى لغة أدبية متقدمة فى ساحة الفكر تقدماً واضحاً ؛ وأخذت البلاغة والشعر مكانة عظيمة عندهم واختُرعت الأشكال الأدبية المعلومة اليوم ، والنثر المسجع وأنواع عديدة من الأوزان ، واتخذت المنظومات أساليب معروفة ؛ فراج قرض الشعر كثيراً لمدح أبطالهم وقبائلهم وذم أعدائهم . وكان يقابل شعرَ البدو ، شعر خاص بأهل المدن أرق من شعر البدو . وكانت قريش مكة أرق القبائل فى هذا . وإن تكن قريش مكة وثقيف الطائف وغيرهم من أهل المدن قد أظهروا عداوة لمحمد (صلعم) فى بادئ الأمر ، فإنهم صاروا على رأس جماعة المسلمين بعد أن قامت الدولة ، وأسندوا إلى محمد حديث « الإمامة من قريش » . وترأس القرشيون فى إنشاء المدن وتنظيم الإدارة فى البلاد المفتوحة . وكان العرب من سكان

المدن يتعقبون أثر الجيش العربى عموماً ، فهم الذين قاموا بأجل خدمة فى تقوية القومية العربية فى البلاد التى فُتحت .

وقد نشأت أصول المدن الإسلامية من امتزاج التقاليد المحلية — كما فى جميع ساحات الحياة الحضارية الإسلامية . حاول بعض الرحالين من الأوربيين تعليل بناء البيوت فى المدن الإسلامية داخل ساحة الدار ، وجعل الواجهات المقابلة للشوارع جدرانا وحوانيت بأنه ناشىء من خوف « الاستبداد الشرقى » . ولكن أثبتت حفائر مدينة «بومبى» أن المدن اليونانية القديمة أنشئت على هذه الصورة نفسها . وقد دهش عدة من الأوربيين الذين وفقوا لزيارة مكة إذ شاهدوا بيوتاً تُطل نوافذها على الشوارع على نسق المدن الأوربية . وفى مدن اليمن بيوت كبيرة مزخرفة لفتت نظر السائحين ولكن لم يُعلم إلى الآن هل هى بُنيت على التقاليد المحلية أو على التقاليد الهندى الدخيل .

وقد حافظ العرب زمناً طويلاً على حياة العشيرة والقبيلة حتى بعد انتقالهم إلى الحياة الحضارية ؛ فكانت العلاقة بين رجال قبيلة واحدة أوثق من العلاقة بين سكان مدينة واحدة . وإذا فُتحت مدينة أنشئت أحياء خاصة بكل قبيلة ؛ فوجود جدران ذات أبواب بين الأحياء بل بين الشوارع فى كثير من المدن كدمشق ، متصلٌ بفهم العرب للحياة هذا الفهم . وقد حمل العرب هذه العادة إلى إيران أيضاً ؛ فإن تأسيس مدينة مَرْو مثلا فى القرنين الرابع والخامس الهجريين

(الحادى عشر والثانى عشر) كان على هذه الصورة نفسها . وليس لمدينة همذان فى زماننا ، سور عام يحيط بها ، ولـكن بها أبواب بين أحيائها تُقفل ليلاً ، وتوجد مثل هذه الأبواب حتى فى الحارات التى حول المدينة .

ولم ينشىء العرب مدينة جديدة فى سوريا فى القرن السابع الميلادى . وأنشئت فى القرن الثامن فى زمن الخليفة سليمان (سنة ٩٦ — ٩٩ هـ = ٧١٥ — ٧١٧ م) مدينة الرملة على الطريق الممتد من القدس إلى البحر . فانتقلت الحياة إلى المدينة الجديدة بالرغم من مكانة القدس الدينية عند المسلمين ، وظلت قروناً عديدة مدينة فلسطين الرئيسية ، إلا أن مكانة الرملة كانت محلية ؛ فلذا لم يظهر لها أثر كبير فى ازدهار الحضارة العربية التاريخية . وظلت دمشق القديمة مركزاً للحياة الحضارية والسياسية فى سوريا . ولم تكن حالة المدينة فى ذلك الوقت مما يمكن مقارنتها بعواصم اليوم ؛ فإنها لم تمتد خارج الأسوار المبنية بالحجارة إلى النصف الأخير من القرن العاشر . وكان طول الشارع « المستقيم » الممتد من الباب الشرقى إلى الباب الغربى مايقرب من كيلين . والمسافة من الباب الشمالى إلى الباب الغربى كانت أقصر منه قليلا . وكانت وسط المدينة ساحة واسعة بها معبد ضخم (كان هـذا المعبد للوثنيين ثم صار للنصارى ثم للمسلمين) ؛ فها هنا كانت كنيسة يوحنا المعمدان التى اضطر النصارى إلى التخلى عنها للمسلمين فى عهد الوليد الأول (سنة ٨٧ — ٩٧ هـ = ٧٠٥ — ٧١٥ م) ، وبُنى مكانها جامع بنى أمية المنقطع النظير

فى العالم الإسلامى فى زخرفته . وكان بقرب الجامع قصر بنى أمية الذى اختفى فى القرون الوسطى .

وكانت المدن التى أسست لتكون معسكرات ، كالجابية ودابق (شمالى حلب) تشغل فى سوريا مكانة فى الدرجة الثانية بعد دمشق . على أن بعض الأماكن من هذا النوع بلغ درجة المدن الكبيرة وفاقت المدن المركزية القديمة . ومن تلك المدن القاهرة ؛ فقد بناها العرب أولا معسكراً على ساحل النيل باسم الفسطاط (فسّاتون Fossaton باليونانية واللاتينية ومعناها المحاط بخندق) . وكانت تشغل على ساحل النيل الشرقى مكاناً طوله خمسة أكيال فى عرض كِيل واحد ، وفى وسط الشارع ميدان به مسجد عمرو الذى يحمل اسم فاتح مصر ، ودار القضاء . ومدينة القيروان الخربة فى تونس ؛ والكوفة على الفرات ، والبصرة على حافة شط العرب ، وشيراز فى إيران ، كلها أنشئت لتكون معسكرات كذلك . وأما المدن التى أسست لغير مقاصد عسكرية فكانت أطول أعماراً ، كمدينة فاس مثلاً ، أنشئت فى القرن الثانى الهجرى (نهاية القرن الثامن الميلادى) ، ومدينة كنجه فى القوقاز ، أنشئت فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) . ولا نجد فى التاريخ دليلاً على ترك العرب للمدن التى نشأت من المدن المبنية للجيش بعد تخريب المدن المنشأة قبل الإسلام إلا مرة واحدة ، وذلك أن قلعة بروقان الواقعة جنوبى جيحون استبدلت بها مدينة بلخ (بكتريا القديمة) .

وقد ساعد العرب فى إيران وتركستان على تقدم حياة المدن كما ساعدوا على تغيّر أصول المدن . وكانت مدن هذه البلاد تؤلف من قلعة كبيرة تدعى « دِز » ومدينة أصلية تدعى شَهرستان . ومعنى شَهرستان مقر الحكم وهو نفس المعنى الذى تدل عليه كلمة « مدينة » التى أخذها العرب عن سوريا . ولم يكن ميدان التجارة داخل المدينة ، بل خارجها بجانب الباب . وتدل على ذلك كلمة « بازار » ، ومعناها عمل بجانب الباب ، التى دخلت فى اللغات الإيرانية والسامية الحديثة من اللغات الأجنبية . وأما فى زمن العرب فانتقلت الحياة رويداً رويداً إلى الأحياء التى يقيم فيها الصناع والتجار فى الشهرستان . وبنيت هنا أيضاً مدن على نظام مدن الشرق الأدنى ، رويداً رويداً . وهذا النظام هو : أن يمتد السوق بجانب الشارعين الكبيرين اللذين يقطعان المدينة من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب ، وفى وسط المدينة ميدان فسيح به أكبر مساجد المدينة . وقد تتبعَ التجار المسلمون أثر التجار اليهود والنصارى الذين سبقوهم ؛ فانتقلت الحياة فى مَرْو فى أيام المسلمين وكان من الشهرستان إلى الحى الواقع على حافة نهر « مَجان » ، غربى المدينة . وفى هذا المكان نفسه عاش مطران النصارى قبل المسلمين. وكان فى موضع إصفهان ، وهى أكبر مدن إيران ، حى لليهود قبل الإسلام ، على مسيرة بضع أكيال من الشهرستان . واتسعت هذه المدينة منذ القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ؛ فصارت ضعفى الشهرستان القديمة .

كان الولاة يقيمون فى المدن الكبيرة وفيها منشآت الحكومة .
واقتدى العرب فى هذا أيضاً بعادات الشعوب التى أدخلوها تحت حكمهم .
وقد بدأ تأثير إيران يظهر منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب (١٣ — ٢٣هـ = ٦٣٤ — ٦٤٤ م) ، فأنشئت دواوين للكتابة والحساب . ولعل كلمة « ديوان » التى تدل على معنى chancellerie ، أُخذت من اللغة الفارسية . وأما البلاد التى كانت فى حكم بوزنطة ، فأخذت المصطلحات فيها من اليونانية واللاتينية كـكلمة القَسْطار questor التى أخذت فى مصر من اللغة اللاتينية .

وظلت الأعمال الكتابية فى عهد العرب ، بأيدى العمال المحليين وفى اللغات المحلية (فى الفارسية واليونانية) ولم يُبدأ استعمال اللغة العربية إلا فى نهاية القرن الأول الهجرى (نهاية القرن السابع الميلادى) . ومن هذا الحين أيضاً بُدئ فى سك العملة باللغة العربية . وطبعت فى البلاد المأخوذة من بوزنطة ، صورة الصليب كما كانت فى المسكوكات البوزنطية قبلاً . وأما فى ولايات إيران فطبعت صورة بيت النار . ورأى العرب نظام السكة الذهبية فى بوزنطة والسكة الفضية فى إيران . وظل هذا الفرق حتى بعد أن صارت هذه البلاد إلى العرب ؛ فسميت السكة الذهبية عند المسلمين ديناراً (من ديناريوس اللاتينية) والسكة الفضية درهماً (من دراخموس اليونانية) ، ودخل هذا الاسم فى إيران بعد إسكندر .
وأما كلمة الفَلْس ، اسم العملة النحاسية ، فأخذت من كلمة أبُلُس اليونانية .

وكان الدينار يُسكّ في عهد الدولة الأموية فى دمشق وفى عهد الدولة العباسية فى بغداد . وأما الدرهم فكان يُسك فى المدن الكبيرة التابعة للولايات أيضاً . ولم تكن للفلس إلا قيمة محلية . وكان الدينار منذ القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) يزن فى إيران الشرقية وآسيا الوسطى مثقالاً واحداً . والدرهم أصغر منه وقيمته تعادل $\frac{1}{20}$ من الدينار . أى أن العرب اجتهدوا كذلك فى المحافظة على النسبة المعينة بين العملة الذهبية والعملة الفضية ، منذ عهد ملوك إيران القدماء حتى دول أوربا الغربية الحالية . ولكن العرب ، كما يقع دائماً ، لم يوفقوا للمحافظة على ما بين هذين المعدنين من نسبة فى جميع الأزمان ؛ فكانت قيمة الفضة ترتفع وتنخفض بالقياس إلى قيمة الذهب .

وظل تأثير الشعب فى الأعمال الإدارية منحصراً فى دائرة الأعمال المحلية . وإنا نرى مصطلحات مأخوذة من لغات عديدة تستعمل متآلفة معاً فى أعمال الخلافة الخاصة بالدولة والإدارة . فالمصطلحات المأخوذة من بوزنطة مثلاً تستعمل فى البلاد التى أخذت من إيران ، كما تستعمل الكلمات المأخوذة من إيران فى الولايات التى كانت لبوزنطة سابقاً . وكانت الرسل التى تنقل رسائل الحكومة فى ذلك الوقت ، كما كانت سابقاً ، تسمى « بريد » ، وهى كلمة مأخوذة من كلمة وريدوس weredus اللاتينية . بينما سماها اليونان انكروس نقلاً عن اللغة الفارسية . وقد شاع المصطلح العسكرى « الجند » كثيرا ، وهى كلمة فارسية معروفة قبل محمد (صلعم) ، فى

سوريا فى المعسكرات التى بقيت على حالها ولم تتحول مدناً . على أن البلاد التى كانت تابعة لبوزنطة سابقاً قُسمت فى عهد الخلفاء إلى عدة أجناد . وكان أمراء المعسكرات التابعة للولايات يحملون لقب أمير مصر مع لقب أمير الجند . ومَصْر كلمة يمنية معناها المدينة ، استعملت فى معنى غير معنى « رستاق » التى تدل على قرية . وقد استعملت مع الكلمات العربية الحقيقية كلمة ا « حرس » لمحافظى الملوك أو الأمراء ، وكلمة « شُرطة » للبوليس العسكرى . وكان على رأس الشرطة قائد خاص بها ، وهو فى مقام الجناح الأيمن للأمير . ولعل جميع هذه الرتب مأخوذة من الايرانيين . لم يكن الخلفاء مستبدين كالإيرانيين فى بادئ الأمر . إلا أن أصول الإدارة الإيرانية اتُّخذت نموذجاً لهم . وكان الخليفة فى عهد الدولة الأموية أكثر شبهاً بشيخ العرب أو سيدهم منه بشاه إيران . وقد طلب الخليفة الوليد الأول فى بعض أيامه أن ينادى باسمه فقط اتباعاً لعمل الرسول (صلعم) .

قبلت الخلافة التقاليد الإيرانية فى أمور الدولة ، ولكنها أخذت فى ساحة الحضارة أموراً كثيرة من بوزنطة ؛ فإن صناعة النسيج المصرية التى جلبت إلى سواحل سوريا فى عهد الخلافة ، ظهر تأثيرها فى إيران وتركستان أيضاً . وكانت الأقمشة التى تحمل اسم مصر تُنسج فى إيران وتركستان كما تنسج فى مصر . وأما فى الأزمان الأخيرة فقد تخلى المسلمون عن الأولية فى الحضارة المادية للصين وعن الثانوية لليونان . نقل عرفى وهو مؤلف إيرانى فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ،

وكلافيجو Clovijo السياح الأسبانى فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) أقوالا يرددها المسلمون وهى : يزعم الصينيون أنه لا عين فى أمور الفن إلا لهم وأن الأقوام الأخرى عمى . وأما اليونان (الإفرنج عند كلافيجو) فيُستثنون من هذا الحكم ، فهم عور .

أعطى اليونان المرتبة الأولى فى الحضارة . وابتدأت الترجمة من اليونانية إلى العربية بتأثير المسيحيين فى القرن الأول الهجرى . فإن خالد بن الخليفة يزيد الأول كان أول المحبين لعلوم اليونان ، توفى سنة ٨٥ هـ (٧٠٤م) ولما يبلغ الأربعين من عمره (وكان صغيراً حين توفى أبوه سنة ٦٤ هـ = سنة ٦٨٣م) . ويُعزى إليه ترجمة كتب فى علم الهيئة والطب والكيمياء . حتى يُروى أنه وجد الحجر الفلسفى الذى يصنع به الذهب الاصطناعى . وكان خالد أمير مدينة حمص فى سوريا الشمالية ، وكان بهذه المدينة معبد الشمس المشهور فى الزمن القديم ، ثم كانت بها كنيسة كبيرة احتل المسلمون قسماً منها فيما بعد . وفى رواية أخرى أن المسلمين كانوا يصلون فى قسم من هذا المبنى مع أن قسمه الآخر ظل كنيسة منذ القرن العاشر الميلادى . ويحتمل كثيراً أن يكون المجوس أيضاً يتعبدون فيه فى تلك الأزمان . إن مدينة حمص أحسنت استقبال فاتحى المسلمين أكثر من جميع مدن سوريا الأخرى . ويمكن تعليل ذلك بنظر سكان هذه المدينة إلى الإصلاحات الدينية التى قام بها هرقل نظرة عداء .

وبالرغم من أن المسلمين عرفوا الحضارة اليونانية فى الإسكندرية ومدن

سوريا ، فقد ظهرت الآثار المدنية المهمة حتى فى ساحة العلم نفسه فى الكوفة والبصرة على شواطىء دجلة والفرات . أنشئت كلتا المدينتين فى عهد الخليفة عمر على النموذج المعتاد ؛ ففيها أحياء خاصة بالقبائل وبوسطيهما ميدان به جامع وقصر الوالى . ونُقلت البصرة فيما بعد إلى مكان آخر ، فهجرت المدينة القديمة . وأما الكوفة فقد ضاعت مكانتها منذ زمن بعيد . إلا أن الجامع لا يزال قائماً إلى الآن ولو أنه لم يُدرس إلى الآن درساً علمياً كما أن مدينة واسط المنشأة على إحدى روافد دجلة فى أيام الأمويين لم تدرس إلى الآن . وقد فقدت واسط خطورتها السياسية بعد الدولة الأموية إلا أنها ظلت قروناً عديدة مركزاً للتجارة والصناعة .

صارت الكوفة والبصرة مركزين نشيطين للحياة العلمية ، ولم يكن فى القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) مدينة تستطيع منافستهما ، ففيهما وضعت علوم العقائد والفقه من قبل الأعجام (غير العرب) الذين أسلموا وتلاميذهم . ثم نشأت فى كلتا المدينتين مدرسة (مذهب) للنحويين واللغويين ؛ فكانت مجادلات ومنافسات بين البصريين والكوفيين . ولكن لم يكن أكثر هؤلاء الواضعين للعلوم العربية أيضاً من العرب بل كانوا أعجاماً [١] . وقد رتب الخليل بن أحمد ، وهو رئيس البصريين ،

---

(١) تاريخ العلوم الإسلامية والعربية لا يصدق هذا القول على إطلاقه ، فأئمة النحويين فى ذلك العصر كانوا من العرب ، ولم يكن سيبويه إلا تلميذ الخليل . وكذلك علوم العقائد والفقه ، كان للعرب فيها نصيب لا يقل عن نصيب غير العرب فى الجملة . وحسبك أن تذكر أن كل الأئمة المجتهدين ، ما عدا أبا حنيفة ، من العرب . انظر المقدمة .

قاموساً للغة العربية . وتعتمد الكتب العلمية والاصطلاحية التى ألفت فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) فى خراسان ، على كتاب الخليل (ألف الخليل كتابه المذكور فى خراسان) . ويتضح من هذا القاموس تأثير اليونان فى علوم العرب ، كما ظهر فى تصنيف العلوم : فتُقسم الفلسفة إلى قسمين كبيرين : وهما الفلسفة النظرية والفلسفة العملية . ويُدخل بعض العلماء علم المنطق فى قسم العلوم العملية . ويجعله علماء آخرون قسماً خاصاً . وهناك قسم ثالث من العلماء يسمونه آلة للفلسفة . والفلسفة النظرية أقسام ثلاثة أصلية : وهى الإلهيات والطبيعيات وبينهما الرياضيات . وتنقسم العلوم الرياضية إلى الأقسام الآتية : الحساب والهندسة والهيئة والموسيقى . تلك هى المعارف التى كونت الحكمة الرباعية لأوربا فى القرون الوسطى (quadrivium[1]) . ثم اعتبر الرياضة والمنطق معاً مقدمة لدراسة وفهم الإلهيات والطبيعيات . ولم تكن للإلهيات أقسام . وانقسمت الطبيعيات أقساماً عديدة ، كالطب والكيمياء . والفلسفة العملية تنقسم إلى أقسام كالأخلاق والاقتصاد والسياسة . وللنحو والريطوريقا والدياليقطيقا أيضاً مكان بين العلوم ، ولكنها لم تكن تتحد فى قسم مستقل . وهناك باب للكتابة والشعر والتاريخ بعد النحو والعقائد والفقه الإسلامى . ويُدرس الريطوريقا والدياليقطيقا فى باب المنطق كأنهما من أقسامه .

---

(١) كلمة لاتينية معناها الطرق الأربعة ، وهو القسم الأول المشتمل على علوم الحساب والهندسة والموسيقى والفلك ، من القسمين اللذين تنقسم إليهما العلوم البشرية فى القرون الوسطى . والقسم الثانى يسمى الطرق الثلاثة trivium ، وهو يشمل علوم النحو والبلاغة والمنطق . وكانت هذه العلوم السبعة تسمى العلوم الجديرة بالرجل الحر Arts libéraux لغتجه" فلسفة لاسماعيل فنى

الفصل الثالث

بغداد وازدهار الحضارة العربية المتأخر

وُضِع فى البصرة والكوفة أساس علم الكلام الإسلامى والنحو وفقه اللغة العربية . وكان للقصر العباسى تأثير كبير فى رقى هذه العلوم فيما بعد ، وفى رواج العلوم والمعارف الأخرى عامة .

وقد أنشأ الخليفة المنصور فى سنة ١٤٥ ه (حوالى السنة الستين من القرن الثامن الميلادى) عاصمة جديدة له على شاطىء دجلة الغربى . وكان هناك من قبل دير للنصارى وقرية تدعى بغداد ؛ فسميت المدينة الجديدة بهذا الاسم التاريخى . ولم يَرُج إسم مدينة السلام الذى أسماها به مؤسسها الجديد . ولكن الخلفاء استعملوا فى مسكوكاتهم هذا الاسم (ولا يُذكر اسم بغداد فى المسكوكات إلا بعد استيلاء المغول عليها ٦٥٦ ه = ١٢٥٨م) . ولقد خُطت مدينة المنصور التى دَرَست منذ زمن بعيد ، على شكل خاص بها . ومن أظهر ما يميز بغداد عن المدن الشهيرة الأخرى كونها مخططة تخطيطاً دائرياً . وكانت لأسوارها أبواب أربعة فى جهاتها الأربع . وقد بُنيت بجانب كل باب أبنية كبيرة لاقامة الفرق العسكرية . والأبواب الأربعة تُفضى جميعاً إلى الساحة الواقعة فى المركز . وكان بهذا الميدان القصر الكبير والدواوين . وكان عدد الدواوين فى ذلك العهد سبعة وهى :

(١) ديوان الخاتم وهو ديوان يعمل على تصديق الشئون المعروضة على الحاكم.

(٢) وديوان الشئون السياسية.

(٣) وديوان جيش الخاصة.

(٤) وديوان الجند الذى يدبّر قوة الدولة العسكرية.

(٥) وديوان الخزانة، وهو يقوم بشئون واردات الدولة.

(٦) والديوان الذى ينظر فى شئون نفقات الدولة يعنى ديوان المالية

(٧) وديوان ينظر فى الأرزاق والمهمات الخاصة بالدولة.

وكان فى الميدان الفسيح الذى به الدواوين المذكورة مبان أخرى لإدارة الدولة المركزية لخزينة الدولة والمهمات العسكرية ومخازن الأسلحة وغيرها، وفيه مطعم عام لحرس الحاكم وضباطهم. وكان هذا الميدان المحتوى على جميع المصالح المذكورة محاطاً بسور عظيم، ولا يُدخل فيه إلا من أبواب خاصة. وليس له صلة بالأحياء الأخرى. وأما الأسواق فكانت خارج المدينة. وكانت عاصمة المنصور هذه أكبر من مدينة دمشق على كل حال، ومع ذلك لا يمكن مقارنتها بمراكز الدول فى هذه الأيام. وكان نصف قطر الدائرة التى تشغلها هذه المدينة أقل من كيلين[1].

إن قصة إنشاء مدينة بغداد تدل على ما حدث بعد النبى والخلفاء

---

(١) الكيل كالميل تعريب كيلومتر.

الأربعة من التغير الخطير فى حياة الملوك فى العالم الإسلامى ، واستمر هذا التغير فى عهد الخلفاء من بعد ؛ فإن زيادة سيطرة العمال وزيادة سلطان الوزير وهو رئيس الدواوين ، كل هذا حدث فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى (فى النصف الأول من القرن التاسع الميلادى) .

وفى هذا العهد نفسه أحاط الخلفاء أنفسهم بفرق من الجنود المكوّنة من الارستقراطية الإيرانية والأتراك المملوكين . وكان هناك عامل كبير غير الوزير وقائد الجيش ، يدعى قاضى القضاة ، يتولى رياسة الأمور القضائية . وكان العمال فى زمن المنصور ، حتى أصحاب المناصب العالية ، يتقاضون رواتب أقل من رواتب العمال فى عهد الدولة الأموية (٣٠٠ درهم شهرياً يعنى سبع جنيهات ونصف الجنيه الإنجليزى) . وارتفعت الرواتب فى زمن الخليفة المأمون ؛ فكان قاضى مصر فى أيام المأمون يتقاضى راتباً قدره أربعة آلاف درهم شهرياً (٨٠ جنيها إنجليزيا) . وفى رواية أخرى أعلى من ذلك ، أى سبع دنانير يوميا (ثلاث جنيهات ونصف الجنيه الانجليزى) . وكان راتب الوزير فى بغداد فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) يبلغ سبعة آلاف دينار شهريا (٣٥٠٠ جنيه إنجليزى) . وقاضى القضاة خمسمائة دينار (٢٥٠ جنيها انجليزيا) . وفى الجملة ، فإن رواتب العمال فى القرن الرابع وهو عهد تناقص بلاد الخلافة ، أعلى مما كانت فى أيام هارون الرشيد بكثير .

وكل هذا يدل على أن الحكام فى الشرق ، لم يؤثروا فى حياة بلادهم

تأثيراً كبيراً ، كما يُظن ؛ فإن الذين لا يعرفون الشرق معرفة كافية يتذكرون هارون الرشيد وقصره إذا سمعوا كلمة بغداد . فى حين أن بغداد هارون الرشيد كانت مدينة صغيرة بالقياس إلى بغداد خلفاء القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين) الذين فقدوا سلطانهم .

• • •

ومن الخطأ أيضاً الظن بأن دخول علم اليونان وفلسفتهم إلى العرب كان بتأثير الأوامر التى صدرت فى أيام المنصور والمأمون بالبحث والحصول على مخطوطات وترجمتها إلى العربية . فلا شك فى وجود علاقة بين العلم فى العهد الاسلامى والعلم اليونانى الذى كان منتشراً فى إيران قبل العهد الإسلامى ، ولو أن هذه المسألة لم تُدرس بعد درساً وافياً .

إننا نجد حتى فى قصور المنصور والمأمون علماء خرجوا من إيران (وكان هناك بعض اليهود أيضا) . ولم تُتَرجم الكتب العلمية إلى العربية من اللغة السريانية فقط ، بل تُرجمت إليها من الفهلوية أيضاً ، أى من فارسية الدولة الساسانية . وكانت جداول الهيئة تسمى الـ « زيج » ، وهو اصطلاح فارسى . ولا يعرف العرب شعراء اليونان وعلماءهم ومؤرخيهم لأنهم عرفوا علم اليونان وفلسفتهم على أيدى الوسطاء بمشقة ؛ فلذا لم يكن لهم تصور واضح فيما يخص تاريخ علم اليونان وفلسفتهم ؛ فتاريخ اليونان يبدؤ عندهم بفلپوس ملك مقدونيا . ومعلوماتهم فيما يختص بحياة فلاسفة اليونان وعلمائهم سطحية ؛ فيزعم المتخصصون منهم أن سقراط قتل بأمر ملك اليونان .

و يعدون بعض علماء اليونان إيرانيين لأن مؤلفاتهم المعروفة لديهم مكتوبة بالفهلوية .

وقد أثَّر فى إيران ، سواء فى عهد الساسانيين أو فى العهد الإسلامى ، علم الهند زيادة على تأثير علم اليونان . وحدث هذا التأثير بواسطة اليونان ، كما يُظن حدوث بعضه مباشرة أيضاً . وبدأ تأثير اليونان فى علم الفلك خاصة . وأما تأثير الهند ، ففى العلوم التى نشأت فيها كالحساب والجبر . إن الأرقام التى اشتهرت فى أوربا باسم الأرقام العربية والتى انتقلت من الهند إلى الغرب بطريقين ، طريق إيران وطريق مصر ، اختُرِعت فى الهند ؛ فإذا طرحنا جانباً خدمات ديوفانت Diophante الرياضى الذى عاش فى الإسكندرية فى القرن الرابع الميلادى ، فإن علم الجبر الذى لم يكن معلوماً لليونان علماً تاماً ، كان قد ازدهر فى الهند إلى حد كبير . وقد تعرف الأوربيون بهذا العلم بوساطة العرب واتخذوا كلمة الجبر العربية إسماً له . وقد أثر فى اليونان من العلوم الهندية علم الطب تأثيراً كبيراً . ويُستدل على ذلك بما استعمله ديوسقوروس الطبيب الذى عاش فى الإسكندرية قبل الميلاد بقرن من المصطلحات الهندية . ومن جهة أخرى كان الهنود أنفسهم يعتمدون على أطباء بكتريا (بلخ) ؛ فإن الجراحة التى فقدت مكانتها فى الهند سريعاً ، يُظن أنها بقيت تحت التأثير اليونانى خاصة .

إن حوض دجلة والفرات كان أنشط أماكن الحركة العلمية فى القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر)؛ فالبصرة وحرّان و بغداد كانت

أهم مراكز العلم والحضارة . ويمكن أن يُذكر هنا الجاحظ المشهور بغزارة علمه (المتوفى سنة ٢٥٦ ﻫ = ٨٦٩ م) والكندى (توفى سنة ٢٦٠ ﻫ = ٨٧٣ م) أول مفكر حر فى العرب ، من المشاهير الذين ارتبطت أسماؤهم بالبصرة . وتألفت فى البصرة فى القرن الرابع ، جماعة من المفكرين الأحرار باسم « إخوان الصفا » . وقد نالت الواحدة والخمسون رسالة . التى أبدعها هذا الاتحاد الشبيه بالجمعية الماسونية ، إقبالاً عظيماً بين الناس ، وحملها أحد رياضى اسپانيا إلى بلاده فى أواخر القرن الرابع الهجرى (نهاية القرن العاشر الميلادى) . وفى نهاية القرن الثامن (نهاية القرن الرابع عشر) تُرجمت إلى الفارسية لأحد وزراء تيمور . وكانت بغداد تجذب العلماء من كل أرجاء العالم الإسلامى المختلفة وخاصة من إيران وآسيا الوسطى ؛ فكان أبو معشر ، منافس الكندى فى بغداد ، من أصل بلخى . كما أن أبا زيد أحد تلاميذه المشهورين ، من بلخ أيضاً . وقد عاش فى بغداد من قبل عالم يدعى أبو موسى الخوارزمى ، وهو من خوارزم أى من جمهورية خيوة الحالية . وقد خلّف كتباً قيمة فى الحساب والجبر ، وظل ثقة فى أوربا حتى عصر النهضة (واللغاريتم كلمة محرفة عن هذا الإسم) . وظهر من فرغانة الواقعة على الحدود الشرقية للبلاد الإسلامية فى تلك الأزمان ، الفلكى المشهور أحمد الفرغانى (توفى سنة ٢٤٧ ﻫ — ٨٦١ م) . ومن التركستان الفيلسوف أبو نصر الفارابى ، وهو تركى تلقى العلوم فى بغداد وتوفى بدمشق سنة ٣٣٩ ﻫ (٩٥٠ م) . وللبتانى الرياضى الفلكى مكانة

خاصة بين العلماء الذين نشأوا فى حران . اشتغل فى مدينة الرقة الواقعة على شاطئ الفرات وتوفى سنة ٣١٧ ﻫ (٩٢٩ م) ؛ والمعلومات الأولى عن المثلثات مرتبطة باسمه فى أوربا . وكانت المثلثات فى بلاد اليونان والهند ملحقة بعلم الفلك ، ولم تصر علماً قائماً بذاته حتى فى الشرق إلا فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) .

لم يكن عدم اطلاع العرب على فقه اللغة اليونانية وتاريخ اليونان خالياً من التأثير فى أعمالهم الفلسفية والعلمية ؛ فإن علماء العرب لم يقدروا على تمييز الكتب المختلفة المعزوة إلى الفلاسفة المتقدمين ، من أصولها . وكانوا يخلطون أحياناً بين الأسماء المشتركة أو المتشابهة من أسماء الفلاسفة كأفلاطون وأفلوطين مع وجود اختلاف فى زمن حياتيهما . ولم يكن يفهم الفرق بين آراء أفلاطون (وازدهارها باسم الأفلاطونية الحديثة) وآراء أرسطو فهماً واضحاً ؛ فينسب مثلاً كتاب الإلهيات إلى أرسطو وهو تأليف أفلوطين الذى عاش فى القرن الثالث الميلادى . وقد انتقلت أمثال هذه الآراء الخاطئة فى أرسطو من العرب (كان المترجمون يهوداً) إلى أوربا فى القرون الوسطى ؛ فكان إلهيات (théologie) العرب وتصوفهم (mistique) تشبه شبهاً قليلاً جداً فلسفة أرسطو الحقيقية التى وجدها الأوربيون بعد أن تعرفوا بالمصادر اليونانية رأساً . وقد حاول فلاسفة العرب تأليف الفلسفة اليونانية مع الآراء الدينية الإسلامية كما فعل الكاثوليك من قبل ؛ فلذا يجعل مؤرخو الفلسفة أحياناً مصطلح « اسكولاستيك » شاملاً الفلسفة العربية أيضاً .

• • •

لقد ساعدت العلاقات الوثيقة بين الممالك الإسلامية المختلفة مساعدة كبيرة على نقل نتائج الحضارة من يد إلى يد : فإن تاريخ الطبرى الذى أُلِّف فى بغداد فى القرن الرابع (العاشر الميلادى) ، والذى هو أوسع مرجع فى العصور الإسلامية الأولى ، انتشر فى القرن نفسه فى العالم الإسلامى من مشرقه إلى مغربه . وأُلِّف فى قرطبة للحكم الثانى (٣٥٠ — ٣٦٥ ه = ٩٦١ — ٩٧٦) ملك الأندلس ، كتاب تاريخى مقتبس من هذا الكتاب — مع زيادات خاصة بتاريخ الأندلس — كما كتب فى بخارا ملخص للطبرى باللغة الفارسية للأمير منصور الأول السامانى . وكذلك الأدب العربى الجغرافى الذى يجدر بحق أن يسمى أثمن مخلفات الحضارة الإسلامية عن القرنين الرابع والخامس (العاشر والحادى عشر الميلاديين) ، يدلنا على وثاقة العلاقات المدنية . وقد ظهرت خرائط بلاد الخلافة والمسائل الحسابية الأولى الخاصة بعلم الهيئة ، فى بغداد وفى قصر المأمون . إن الكتاب الذى ألفه فى القرن الرابع أبو زيد البلخى تلميذ الكندى ، طبّقه الإصطخرى أولا ثم طبّقه ابن حوقل أحد تجار إفريقية الشمالية . إننا نجد فى الكتب الجغرافية العربية المؤلفة فى القرن الرابع ، معلومات مفصلة عن البلاد الإسلامية من إسبانيا إلى التركستان والسند . توصف المدن الكبرى التى فى تلك البلاد وتحصى الصناعات ،

كما تذكر معلومات صحيحة واضحة عن محصولات الأرض[1] . كانت الدنيا تنقسم ، اتباعاً لجغرافيي اليونان ، إلى سبعة أقاليم من الشمال إلى الجنوب ، وتدخل مراكز الحضارة كبغداد وإصفهان فى الإقليم الرابع الواقع فى الوسط . ومن الطبيعى أن تكون هذه الحضارة لدى أرباب الحضارة الإسلامية آخر مرحلة بلغها الذكاء البشرى (وهكذا كان نظر اليونان القدماء والأوربيين نحو حضارتهم) . ويقع الإقليم الرابع وهو المتوسط ، عند علماء المسلمين ، على مسافة واحدة من الجهة الحارة والجهة الباردة . ويجمع أصلح الأحوال لحياة الإنسان وأعماله ؛ فيجب أن تكون هذه البلاد ، بناء على قانون الطبيعة ، أكثر أقسام الأرض حضارة .

إن ازدهار الحضارة لم يكن خالياً من التأثير فى درجة رقى الجماعة فى العلم ؛ فصار العرب يفهمون الفرق بين العالم المتخصص فى علم من العلوم والأديب المطلع على النتائج الأخيرة للعلوم . ونبغ مؤلفون نشروا نتائج أبحاثهم العلمية رويداً رويداً ، كما نبغ فى الأدب شعراء مفكرون إلى جانب أساتذة الأدب المتقدمين فى ساحة الأسلوب القديم . إلا أن الجمال الخارجى الذى يمتاز به الأدب العربى ظل دائماً متفوقاً على الأدب الفارسى الذى يفضّل الفكر . وفى الجملة لم يؤثر الأدب العربى فى الأقوام الأخرى ما أثر الأدب الفارسى فيها فيما بعد .

---

(١) ومنها القطن ، حمله العرب إلى صقلية وأسبانيا من بلاد أوربا . ولا يزال القطن يذكر فى اللغات الأوربية باسمه العربى . المؤلف .

بدأ تقدم المسلمين فى الحضارة فى نُظم الدولة كما بدأ فى إدارة الحروب وأوقات السلم . وقد رُوى أنه كان فى الجيش البوزنطى معلم عربى فى أواخر القرن الثانى (بداية القرن التاسع الميلادى) والتحق بالبلغار الذين كانوا لا يزالون وثنيين (شامانيين[1]) ، لعدم وفاء البوزنطيين له بما وعدوه من المال ، وسبّب انتصارهم على البوزنطيين للمرة الأولى (سنة ٨١١ م) . وفى نفس هـذا القرن يُقر حُجاج نصارى أوربا الغربية الذاهبين إلى بيت المقدس بأن حياتهم وأموالهم فى البلاد الإسلامية كانت فى مأمن أكثر منها فى بلادهم . ومهما كان من تقدم العلم فإن هذا التقدم لم يؤثر إلا تأثيراً ضئيلاً فى لين الطباع وتغيير الحالات الاجتماعية وإدارة الدولة . وكان الفلاسفة عرفوا نظريات أفلاطون وأرسطو السياسية . وصنف منهم الفارابى كتاباً فى السياسة ، ولكن هذا الكتاب يصوّر المدينة الفاضلة بعيداً عن الحياة الحقيقية . ويكفى ذكر هذه العبارة للاستدلال على رأى الفارابى فى إدارة الدولة وهى : « إن وجد مثل هذا فى المدينة الفاضلة ، ثم حصلت فيه بعد أن يكبر ، تلك الشرائط الست المذكورة قبل أو الخمس منها دون الأنداد من جهة القوة المتخيلة ، كان هو الرئيس . . . فإذا لم يوجد إنسان واحد اجتمعت فيه هذه الشرائط ولكن وجد اثنان أحدهما حكيم ، والثانى

---

(١) الشامانية دين وثنى منتشر فى سيبيريا وبلاد المغول الغربية ، بين شعوب جبال آلتاى خاصة ، كأوستياك والتونغوس والصاموية ، ويسمى رجاله « الشامان » . وأساس هذا الدين عبادة الطبيعة والأرواح المديرة لها . ويقيم الشامان الطقوس الدينية بالرقص والغناء والقيام بحركات غريبة ، وقد لبسوا أثواباً مضحكة ووضعوا على رؤسهم القرون .

فيه الشرائط الباقية ، كانا هما رئيسين فى هذه المدينة . فإذا تفرقت هذه فى جماعة ، وكانت الحكمة فى واحد ، والثانى فى واحد ، والثالث فى واحد ، والرابع فى واحد ، والخامس فى واحد ، والسادس فى واحد ، وكانوا متلائمين ، كانوا هم الرؤساء الأفاضل »[١] .

وكانت العقوبات الشديدة تُوقّع على الناس فى ميادين المدن المتحضرة كما كانت قبلاً . والأفكار العامة رضيت بهذا كما كانت الحال فى أوربا الغربية حتى أوائل القرن التاسع عشر . ولم يكن سكان المدن المشاغبون ينالون ثقة الملوك كثيراً . وقد أقام هارون الرشيد فى بغداد قليلاً جداً بالرغم مما فى روايات قصص ألف ليلة وليلة . وقد أنشأ ابنه المعتصم (٢١٨ — ٢٢٨ هـ = ٨٣٣ — ٨٤٢ م) والخلفاء الذين جاءوا بعده عاصمة جديدة للحكومة على شاطئ دجلة باسم سامرا على مسيرة ثلاثة أيام من بغداد . وكان فى هـذه المدينة دير للنصارى أُخذ منهم لبناء المدينة مكانه . ومما يدل على بلوغ سامرا مكانة مدينة عظيمة فى مدة وجيزة ، امتداد طولها على ساحل دجلة نحو خمسة عشر كيلا وإن لم يمتـد عرضها كثيراً . وأنشئت مبان كثيرة فى عهد المعتصم وخلفه الواثق (٢٢٨ — ٢٣٢ هـ = ٨٤٢ — ٨٤٧ م) . ولا تزال أطلال قصر المعتصم وجامع المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ ٨٤٧ — ٨٦١ م) الكبير قائمة إلى

---

(١) آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى ، نشره فرج الله زكى الكردى .

الآن . وبنى فى سامرّا ضريح للمرة الأولى . وكان الخلفاء إلى ذلك الوقت يُدفنون حيث يموتون بلا تكلف اقتداء بالرسول (صلى الله عليه وسلم) . ومنذ هـذا الوقت ابتدأ الاهتمام الكثير بالمكان الذى يموت فيه الخليفة أو يدفن ؛ فنقل المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ = ٨٧٠ — ٨٩٢ م) وهو الذى نقل عاصمة ملكه إلى بغداد فى أخريات أيامه ، إلى سامرّا ودفن بها . ولم تستطع سامرّا استعادة مكانتها السابقة بعد القرن الثالث ، ولكن أطلال المدينة التى بناها المعتصم لا تزال موجودة إلى اليوم ، بينما درست آثار مدينة المنصور . وأخذ الخلفاء فى القرن الرابع يقيمون فى بغداد مرة أخرى . وكانت بغداد فى هذا العصر مدينة كبيرة تشغل على ساحل الدجلة الأيسر مسافة قدرها ٤٣٧٥ فدانا (بالروسية ديستينة ، تساوى ٢٤٠٠ قصبة مربعة) ، وعلى ساحلها الأيمن ½ ٢٩١٦ فدانا . وكانت قصور الخلفاء وثكنات الجيش ثلث المسافة الواقعة على الساحل الشرقى . وكان القصر حرماً ممنوع الدخول بالرغم من وجود الجامع الكبير فيه وهو مكان مباح للجميع . وكان فى بغداد أحد عشر جامعاً كبيراً منها تسعة فى الجهة الغربية وثلاثة فى الجهة الشرقية . وقد كانت القصور التى بسامرّا و بغداد نموذجاً لقصور دول كثيرة فى البلاد الممتدة من بخارى إلى قرطبة حتى بعد أن تقلصت حدود الخلافة .

• • •

وكانت ضرائب الأطيان أساس دخل الخلافة مع ازدهار حياة المدن ،

لأن الشريعة الإسلامية والأفكار العامة تعارض أخذ الضرائب عن التجارة والصناعة[١]، ورغم ذلك كانت هذه الضرائب تؤخذ من كل الجهات. وكلمة تاريف tarif المستعملة فى اللغات الأوربية، ومنها اللغة الروسية، محرفة من كلمة «تعريف» العربية، وهى تدل على تأثير العالم الإسلامى فى أوربا من هـذه الناحية. ولم تهتم الدولة بتطبيق نظام واحد فى جميع البلاد مطابق لما تطلبه الشريعة مطابقة تامة؛ فظلت مصرفى العهد الإسلامى كما كانت من قبل. وكل الفرق بينها و بين غيرها أن الأرض كانت فيها ملكا للدولة. وأما العبودية المرتبطة بالأرض (القِنّ) فلعلها لم توجد فى مملكة من الممالك الإسلامية؛ فإنه لم يكن أحد يمنع المزارعين من ترك أراضيهم، كما أن أصحاب الأطيان كانوا يستطيعون أن يأخذوا أطيانهم من مزارع ليأجروها مزارعاً آخر يدفع أجراً أكثر. ولكن نظام «إقطاع الأرض مكافأة أو هبة» قد تزايد فى البلاد الإسلامية وانتشر كثيراً. إلا أنها لم تكن تقطع هى والذين يعيشون عليها كما كان فى أوربا فى القرون الوسطى، وفى روسيا فى القرن التاسع عشر، بل تقطع وحدها.

وأما فى إيران وفى تركستان فقد أبطل الإسلام، كما سنرى فى الفصل الآتى، نظام الطبقات القديم وامتلاك الأراضى الواسعة. وحدث مثل هذا فى بلاد الأرمن كذلك؛ ولكن النشاط الأدبى لم يغير الحالة الاجتماعية

---

(١) تفرض الشريعة زكاة على رءوس المال، وعروض التجارة وتعشر سلع التجار الذين يدخلون البلاد الإسلامية.

كثيراً فى الجهات التى استعربت لغةً ، فى الساحات الممتدة مما بين النهرين حتى إسبانيا . اتسعت المدن ولكن لم يزد عددها كثيراً . و بقيت علاقات المزارعين بالدولة كما كانت سابقاً ، وكان ارتباطهم بأمراء الاقطاعات فى عهد الإسلام كما كان قبله . إلا أن ملك الأراضى الخاصة لم يكن ذات خطر كبير كما كان فى إيران قبل الإسلام . ويحتمل أن يكون لهذه الحالة أثر فى كون الأمة العربية وهبت للحضارة شيئاً قليلاً ، مع أن البلاد العربية فى العالم الإسلامى تعرضت لهجوم البرابرة وتخريبهم أقل من تعرض البلاد الإيرانية .

ومنذ العقد الرابع من القرن الرابع (حوالى السنة الأربعين من القرن العاشر الميلادى) تقلصت حدود حكم الخلفاء العباسيين[1] ، و بدأ عهد اضطراب فى إيران و بغداد اللتين كانتا تحت حكم الأسر الإيرانية أولاً ثم صارتا إلى الأسر التركية . ولعل تقهقر بغداد لم يكن قبل القرن الخامس (الحادى عشر الميلادى) . ولكن المدينة صغرت فى القرن السابع إلى حد كبير ، حتى قيل فى الكلام على أحد أحيائها القديمة بأنه « على مسيرة ميلين من المدينة » . ومن جهة أخرى كان عهد ازدهار خلافة الأمويين فى الأندلس والفاطميين فى مصر فى هذه الأزمان . وقد أخذت القاهرة تكسف بغداد منذ أواسط القرن الرابع[2] (أواسط القرن العاشر الميلادى) .

---

(١) استولى بنو بويه على بغداد سنة ٣٣٤ هـ .

(٢) القاهرة أسست فى النصف الثانى من القرن الرابع .

والقاهرة اسم لمدينة جديدة بناها الفاطميون على مسافة بضع أكيال شمالى مدينة الفسطاط القديمة ، وكانت أصغر منها . وكانت قاهرة الفاطميين ، حتى بعد اتساعها فى القرن الخامس تشغل نحو كيل مربع من الأرض . وظل بين المدينتين برية مدة طويلة . ومع هذا كانت الفسطاط والقاهرة تعدان مدينة واحدة . وقد انبهر الرحالون المعاصرون بما شاهدوا فى قصور الفاطميين من عظمة ، وفى عاصمتهم ودولتهم من رقى ، وفى ملوكهم ووزرائهم من حماية للعلوم والفنون ومن غنى مكتباتهم . ورغم كل هذا لم تستطع القاهرة أن تؤثر تأثيراً كبيراً فى ازدهار الحضارة الإسلامية .

وكان الفاطميون الذين يدعون أنهم من سلالة فاطمة ابنة الرسول ، يعملون على تقوية مذهب الشيعة ونشر نفوذهم المنافس لخلفاء بغداد حتى خارج حدود بلادهم . ويقوم دعاتهم بنشر مذهب الإسماعيلية ، وهو شعبة من مذهب الشيعة . وهـذا المذهب يجعل إسماعيل المولود ببغداد أيام الخلفاء العباسيين الأولى ، خلفاً شرعياً للرسول أى إماماً . ولكن الشيعية والإسماعيلية عاشتا فى إيران لا فى بلاد الفاطميين . ولم تنتج الدعاية الشيعية نتيجة كبيرة فى مصر ؛ فلذا لم تكد الدولة الفاطمية تفقد الحكم حتى أعيدت السنية بدون عناء . وأما فى سوريا التى تعرضت للدعايات الشيعية من الإيرانيين أيضاً ، وهى فى سلطان الفاطميين ، فقد حاول الشعب مقاومة إعادة السنية .

لم تنتج أفريقية الشمالية والأندلس شيئاً فى العلوم الدينية (فى العقائد

والفقه)، ولم يقبل سكان البلاد المذكورة ، الأصول المتبعة فى الشرق الأدنى رويداً رويداً إلا بعد كراهتهم إياها زماناً طويلاً ، وقد انتصر المذهب المالكى فى أفريقية الشمالية وهو لم يقدر على الاستقرار فى البلاد الأخرى كثيراً . ويجعل بعض العلماء هذا الأمر سبباً لتأخر هذا الركن من البلاد الإسلامية حضارةً .

وأُنشئ فى عهد الدولة الفاطمية مرصد فى القاهرة ونُظمت جداول الهيئة . ولكن البلد الذى عمل لرقى علم الهيئة رقياً حقيقياً هو إيران .

• • •

إن مصر وسوريا سلمتا من هجمات المغول فى القرن السابع (الثالث عشر الميلادى) بانتصار سلاطين مصر عليهم [1] ، ولكن بالرغم من هذا ظلت إيران ، وهى التى أخربها المغول كما سنراه فيما بعد ، مركزاً للحياة الحضارية ، بل ظلت مؤثرة فى مصر . وفى هذا العهد استعملت المصطلحات الفارسية فى أعمال إدارة الدولة بمصر بدل المصطلحات العربية . والزمن الذى بين القرن السابع والتاسع (الثالث عشر والخامس عشر الميلاديين) عهد إصلاح قوى فى مصر . ولكن يرى المتخصصون أن تأثير فن العمارة الإيرانى فى مصر كان أكثر من تأثير فن العمارة المصرى فى إيران .

كانت مصر فى العهد الإسلامى كما كانت فى العهود السابقة ، متفوقة على الممالك الشرقية الأخرى من جهة عدد المنتجات الأدبية ؛ فى مصر

---

(١) موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ ﻫ وما تلاها من وقعات .

يجد المتخصصون ، فيما يجدون من الكتب التاريخية والجغرافية المؤلفة فى مصر ، والوثائق القديمة عن العصور الإسلامية الأولى التى ظلت محفوظة بفضل جفاف جوها — يجدون مواد غنية لا يمكن أن يقارن بها ما يوجد فى الممالك الإسلامية الأخرى . وأما من حيث التأثير فى الممالك الأخرى فكانت القاهرة أقل تأثيراً من بغداد وإيران ، كما أن مصر القديمة كانت أقل تأثيراً من بابل .

وكانت هذه الحال عينها فى سوريا ؛ فقد ساد تيار الجمع فى العلم ، والتقليد فى الأدب . وازدهر الشعر فيها كثيراً فى قصور آل حمدان فى القرن الرابع . وأما بعد القرن الرابع فلم ينبغ إلا شاعر واحد مبتكر وهو المفكر المتشائم أبو العلاء المعرى (فى القرن الحادى عشر الميلادى)[1] .

إن بعض فروع العلوم والشعر العربى قد ختم عهده فى أفريقية الشمالية وخاصة فى الأندلس فى النصف الثانى من القرون الوسطى ، ابتداء من القرن السادس (الثانى عشر الميلادى) . ولكن هؤلاء العلماء والأدباء أيضاً أنتجوا قليلا جداً من الكتب المبتكرة ، وأثروا فى حياة إخوانهم الحضارية تأثيراً ضئيلاً . وأدام الفيلسوف ابن رشد فى أسبانيا فى القرن السادس مجهود الفلاسفة فى عهد بغداد . والفرق بينه وبينهم أنه حاول تجديد تعاليم أرسطو فى صورة واضحة ، إلا أنه لم يقدر على تطهيرها من الأفلاطونية الحديثة تطهيراً تاماً . لقد وجدت تعاليم ابن رشد فى أوربا

(١) أبو العلاء ولد سنة ٣٦٣ وتوفى سنة ٤٤٩ ﻫ .

مريدين من الكاثوليكيين أكثر من المسلمين . وكان أكثر انتشار الحضارة الاسلامية فى صقلية فى عهد الحكم المسيحى فيها . لقد صنعت لجنة مؤلفة برئاسة الأدريسى العربى ، كرة كبيرة مجسمة من فضة ، وألفت كتاباً ضخما فى الجغرافية لروجر Roger ملك النورمان فى صقلية عام ١١٥٤ م ، إلا أن المعلومات الخاصة بالممالك الأسيوية فى هذا الكتاب مأخوذة من جغرافيي القرن الرابع .

كانت الدولة فى كثير من الممالك العربية وخاصة فى مصر ، تكفل بأموالها العلماء . ومع ذلك تبدو قيمة خدمات العلماء أقل من قيمة خدمات العمال . وكان المال المبذول فى العلم جزءاً صغيراً من نفقات الدولة العامة .

كانت البلاغة وحدها تُقدّر فى العالم العربى بقيمة عالية ، كما كانت فى الامبراطورية الرومانية القديمة . يقول ابن عتاب الذى عاش فى نهاية القرن السادس (نهاية القرن الثانى عشر الميلادى) : « يمكن الحصول على مدرس يجيد علوم الصرف والنحو والعروض والحساب والقرآن والأدب بستين درهما شهريا (جنيه إنجليزى) ، بينما المدرس الذى يجيد القول فوق العلوم المذكورة لا يرضى بمائة درهم » . وكانت ميزانية دار الحكمة التى أسسها الخليفة الحاكم بأمر الله (٣٨٦ — ٤١١ هـ = ٩٩٦ — ١٠٢١ م) فى مصر مائتين وسبعة وخمسين ديناراً (١٢٨ ½ جنيه إنجليزى) . ينفق منها تسعون ديناراً للورق الذى يُستعمل لنسخ الكتب ، وستون ديناراً مرتبات الرئيس والعمال .

إن المقدمة المشهورة التى وضعها لكتابه فى التاريخ العام ، ابن خلدون

الذى قام بأعمال الدولة فى أفريقية الشمالية ومصر فى أواخر القرن الثامن (أواخر الرابع عشر الميلادى)، لهى أول كتاب من نوعه فى الأدب العربى وتجربة وحيدة لتخليص التاريخ من القصص، وجعل التحقيق مسيطراً عليه، وللبحث فى قوانين التاريخ. ويسمى ابن خلدون التاريخ علماً جديداً بناء على إدراكه الشخصى. وتاريخه بعيد عن تأثير مؤرخى اليونان الاستنباطيين pragmatique؛ فمؤرخ العرب إذاً أخصب من مؤرخى اليونان علماً وتجربةً؛ فقد اتخذ ابن خلدون تطور الحالات الاقتصادية والانتقال من البداوة إلى حالة الاستقرار، ومن الحياة القروية إلى حياة المدن أساساً لنظريته، بدل تغيُّر النظم السياسية المتخذة أساساً لدى مؤرخى اليونان. بتأثير مَن من العلماء وأى الكتب نشأت نظرية ابن خلدون؟ هذا بحث لا يزال مجهولاً إلى اليوم. ولم يستطع ابن خلدون تطبيق نظريته على الأحداث التاريخية كما حدث لكثير من أصحاب النظريات فى الأزمان القديمة والحديثة؛ فمقدمة ابن خلدون الجليلة كمقدمة ديودورس تشبه جداراً مزخرفاً لواجهة جميلة؛ فإذا أخرجنا المقدمة بقى كتابه مجموعة من الحوادث؛ فهو كجميع جامعى القرون الوسطى، ينقل روايات من سبقه من المؤرخين بدون تغيير فى معظم الأوقات. ولم تؤثر نظرية ابن خلدون فى غيره من مؤلفى العرب. ومما هو جدير بالملاحظة أن ابن خلدون وهو عربى يدّعى بأن الحضارة الإسلامية « نتيجة مشتركة لجميع العالم الإسلامى ». ويجعل الحضارة الإسلامية، وهو جد محق فى

هذا ، فوق ما سبقتها من الحضارات . ومع ذلك قد ذكر أنها تسير نحو الانحطاط وأنها ستضمحل تماماً . وينظر ابن خلدون إلى العرب بأنهم « بدو هادمون للحضارة » . غير أنه يتحدث عن تفوقهم فى الشعر . ويرى أن العرب إذا اختاروا مكاناً لإنشاء مدينة راعوا حاجات الحياة البدوية ؛ فمن هذا ينشأ اضمحلال المدن التى أنشأها العرب[1] . ومع أن ابن خلدون لم يكن كثير التفاءل بمستقبل وطنه الذى سلم فى العهد الاسلامى من التعرض لهجمات البرابرة ، سوى غارات البدو ، فإنه ينظر إلى هجمات الترك والمغول على الممالك الاسلامية نظرة بسيطة وهى « خرابُ بعض المدن وانتقال الحضارة من مكان إلى مكان آخر » . فى حين أن الأوربيين يجعلون استيلاء المغول والترك سبباً لسقوط الحضارة الإسلامية .

وبعد مدة من هذا ، فى القرن التاسع (الخامس عشر الميلادى) سقطت مدينة غرناطة آخر معقل الحضارة العربية فى أسبانيا . وقد ارتقى فن الشعر فى هذه الإمارة الصغيرة إلى أعلى الدرجات ، وأبدعت فيها آثار كقصر الحمراء ؛ وهذا القصر يشغل مكانة خاصة ممتازة بين المخلدات الإسلامية التى وصلت إلينا كقصر مبنىٍّ من مواد خفيفة . إن زخرفة motif هذا البناء الخاصة ، بناء على أقوال المتخصصين ، تتصل بتقاليد الفن الإسلامى العام ، وبالأخص فن ما بين النهرين . أكثر منها بالتقاليد الأسبانية والافريقية .

(١) انظر المقدمة فى نقد نظرية ابن خلدون . إن العرب فى كلام ابن خلدون هم الأعراب غالباً .

وقد ظهر سقوط غرناطة فى نظر المعاصرين ضربةً أصابت العالم الإسلامى كله . ولم يوجد من ينظر إليه من وجهة القومية العربية . إن الحادث الأخير الذى يمثل القومية العربية مع الخطورة الدينية فى تاريخ الإسلام فى القرون الوسطى ، هو إعادة السلطة الزمنية لخلفاء بغداد . إذ أن أهل بغداد اعتبروا هذا الحادث « نجاة العرب » لا « إعادة سلطة الخلافة » . ولكن الخلفاء لم يجتهدوا فى جمع البلاد التى يتكلم أهلها العربية بتوسيع سلطانهم ، وإنما أرادوا أن يعترف السلاطين لهم بحقوقهم السامية باسم الإسلام . وأما فكرة تأسيس دولة عربية كبيرة فقد فقدت قوتها من قبل أن يهدم المغول الوثنيون عاصمة الخلفاء فى سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) بزمن طويل . وسقوط بغداد ، كان كسقوط نينوى وبابل وروما ، لم يحدث تأثيراً كبيراً .

الفصل الرابع

الحضارة الإيرانية

وتأثيرها فى الممالك الإسلامية الأخرى

بناء على ما رأينا آنفاً كان عظماء رجال الدولة والحضارة الإسلامية فُرساً حتى فى الأيام التى كانت اللغة العربية اللغةَ الأدبية الوحيدة للمسلمين . ولكن إلى أى مدى يمكن أن تُعد أعمالهم امتدادا للحضارة الساسانية السابقة للإسلام ؟ إن هذه المسألة لم تدرس دراسة كافية . وإذا استثنينا مملكة بابل التى هى إحدى عواصم الساسانيين ، والتى يتكلم أكثر سكانها غير اللغة الفارسية ، لم يكن لإقليم من أقاليم الساسانيين القديمة تأثير فى رقى المسلمين ديناً واقتصاداً وعلماً كتأثير بلخ التى ظلت مرتبطة بالديانة البوذية حتى قدوم العرب . فمن بلخ نشأ البرامكة وزراء خلفاء بغداد . وأسماء العلماء المشهورين فى تاريخ العلوم العربية ذات علاقة ببلخ . إن خطورة بلخ وبابل عظيمة فى تاريخ الحضارة الإيرانية ، حتى قيل — وينبغى أن يكون هذا قريباً من الحقيقة رغم البعد

الجغرافى — « إن لهجة بلخ هى أقرب إلى لهجة عاصمة الساسانيين من اللهجات الأخرى » .

لم يكتف الاستيلاء العربى بإسقاط الدولة الساسانية بل أزال نظام الطبقات والدين اللذين كانا مسيطرين فى إيران قبل الإسلام ؛ فلم يبق من المعتنقين للزردشتية القديمة إلا قليل من الأتباع يُسمون « گبر » أو « پارث » وعددهم قليل . على أن الإسلام لم يكن خالياً من التأثير فيهم أيضاً ؛ فإن وحدة الإله التى جاء بها الإسلام انتصرت على العقائد الزردشتية القديمة . وزالت عادة « زواج الأب من البنت والأم من الابن والأخ من الأخت » التى تبيحها الزردشتية ، ولو أن الايرانيين وبالأخص الـ« گبر » لم يحجموا مدى القرون الوسطى عن ادّعاء « عدم وجود الزواج من الأقارب فى العقائد المجوسية » فى إيران ، مخالفين بذلك الحقيقة الواقعة . وكثير من الأمور التى ترجع إلى تاريخ إيران قبل الإسلام وُضِعت فى صور جميلة كهذه ولكنها بعيدة عن الحقيقة . وعظمة قصور الساسانيين ، وشوكة دولتهم ، وعقل الملوك والوزراء وتدبيرهم ، وحضارة البلاد ، كانت موضع إعجاب الفرس المسلمين وغبطتهم دائماً . وقد لفّقوا أنواعاً من شجرات النسب الخيالية ليصلوا رجال الإسلام العظام بتاريخ الساسانيين بأى شكل .

يعُد علماء أوربا النهضة القومية الإيرانية فى العصر الإسلامى إحدى نتائج ظهور دول فى إيران غير مرتبطة ببغداد . فهم يرون أن الدول

الفارسية بل الدول التركية ، قد عاونت على ترقية القومية الإيرانية لكى يحوّل الشعبُ وجهه عن بغداد . حتى قيل إن السلطان محموداً (٣٨٧ — ٤٢٢ هـ = ٩٩٧ — ١٠٣٠ م) نفسه الذى هو تركى الأصل والذى دعا شعراء إيران ، ومنهم الفردوسى صاحب الشاهنامة ، فى قصره بغزنة ، كان يعمل بهذه الفكرة نفسها . والحقيقة أن إقامة حياة جديدة فى هذه البلاد التى انهار نظامها القديم كانت فى ظروف سيئة جداً . وقد رضيت الدهاقنة فى العصور الاسلامية الأولى فى إيران ، كأمراء الاقطاعيات فى أوربا فيما بعد ، بزوال خطورتهم السياسية لقاء ما نالوا من الدولة من المزايا الاقتصادية والاجتماعية . وكانت إيران عهد الساسانيين تبدو دولة عظيمة جديرة بأن تُتخذ المثل الأعلى حتى للعرب أنفسهم . فاتُّخذ تقليد المؤسسات التى كانت فى إيران القديمة والاقتباس منها وسيلة لرفع عظمة الاسلام . وكان وزراء الخلفاء وولاتهم الفُرس يزعمون أنهم مؤمنون صادقون وموالى للخلفاء مخلصون .

ووجدت الشيعية أوضًا ملائمة فى الإيرانيين ؛ إلا أن الخلاف المذهبى كان أقوى من القومية هنا أيضًا . وكانت مدينة « قُم » مركزاً للعصبية الشيعية منذ زمن بعيد مع أن أغلب سكانها من العرب . فاتفق الأشراف مع الشعب مؤقتًا لبلوغ غايتهم المنشودة . واجتمع الأرستقراطيون تحت رياسة أبى مسلم ، وهو أحد رؤساء الشيعة ، وحاربوا خلفاء الأمويين الأخيرين . ولما بلغوا الغاية تباينت المنافع فقُتل أبو مسلم ، وقام أنصاره

ضد العباسيين وقد ثابر البرامكة ، وهم ممثلو الطبقة الأرستقراطية ، على العمل لمصلحة الخلفاء العباسيين إلى أن صاروا ضحية رد الفعل الدينى فى أواخر خلافة هارون الرشيد . والمنازعات التى قامت بين الأمين والمأمون ، ابنى هارون الرشيد ، تفسر بأنها ثورات ناتجة من رد الفعل نفسه . رفع المأمون علم الشيعية ، إلا أنه ترك اللون الأخضر وهو شعار الشيعة ، حين دخوله بغداد ولبس السواد شعار العباسيين . ولم يكن عمل الخليفة هذا بتأثير العرب ، بل بتأثير طاهر رأس الامارة الطاهرية الفارسية .

وقام الطاهريون كالبرامكة بخدمة العرب والإسلام ، وعاونوا على الاستيلاء على البلاد الإيرانية الواقعة جنوبى بحر الخزر . وقد وفِّقت هذه البلاد للمحافظة على استقلالها ونظام حياتها القديمة حتى انهيار الدولة الساسانية ، وانتقل الناس هنا أيضًا من الزردشتية إلى الشيعية . ولهذا الحادث علاقة بزوال نظام الاقطاع وملكية الأراضى الواسعة ؛ فإن الخلاف على الخلافة وأهل السنة ، كان فى الحقيقة نزاعًا يخفى تحته مسألة الأرض . وفى مثل هذه الأحوال يلجأ الملوك إلى الشعب ، كما حدث فى أوربا أيضًا ، فيثيرون المزارعين المحرومين من الأرض ضد أصحاب الضياع الواسعة الذين هم « حلفاء العرب » .

إن ازدهار حياة المدن وإنشاء مراكز حضارة جديدة زاد الحياة اضطرابًا . وكانت إصفهان أشهر مدن إيران الكبرى فى القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين) ؛ فإن لدينا معلومات واسعة

عن هذه المدينة وما جاورها بفضل اثنين من الجغرافيين اللذين نشآ فيها . وكان فى هذا المركز العظيم للحضارة ممثلون لجميع الحرف يتنافسون فيما بينهم للتفوق . وإصفهان وطن أبى الفرج (فى القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى) مؤلف كتاب الأغانى المشهور بالعصبية العربية ، ولثمانية[1] من المترجمين الذين نقلوا قصص إيران إلى اللغة العربية . وكان بعض جهات إصفهان يسكنها كلها أنسال الطبقة الارستقراطية من الدهاقنة الذين ظلوا ، كأبناء الأشراف فى بولنده ، يتذكرون انحدارهم من العنصر الأصيل ، بعد أن نزلوا إلى درجة المزارعين الصغار ، ويحتقرون الطبقات الشعبية الدنيا ، ولا يتزوجون إلا من أنفسهم . على حين كانت جهات أخرى من المنطقة نفسها أكثر سكانها من طبقات العامة التى ظهر فيها حتى فى العهد الإسلامى — ولكن باسم آخر — مذهب الشيوعية الذى كان فيها فى عصر الساسانيين .

ولم يستطع الأدباء ورجال العلم الاتصال بجهة من الجهتين اتصالاً تامًّا . وعلى العموم فإن عوامل مختلفة كعداوة العرب والسنية ، والقومية الايرانية ، وحب الناس للشيعة وسائر الروافض — كل هذا كان يجمع الشعب والأمراء الناشئين بين الطبقات الشعبية أو اللذين يعطفون عليها ،

---

(١) فى الترجمة الأردية : « ولثلاثة من المترجمين الثمانية الذين اشتهروا بنقل الأساطير الإيرانية إلى العربية » ، وهذا ينطبق على ما ذكره حمزة بن الحسن الأصفهانى فى صفحة ٩ من كتابه تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء ، المطبوع فى برلين سنة ١٣٤٠ هـ .

فى صعيد واحد . وكانوا من جهة أخرى يشعرون بقرابة كبيرة للذين يمثلون آراء الطبقات الأرستقراطية المحافظة ، للمحافظة على الطبقة الاجتماعية التى ينتمون إليها وعلى كيانهم الحضارى . فمن أجل كل الأسباب المذكورة كانت نهضة إيران الحضارية فى أحوال مشوشة كثيراً ولم تُدرس إلى الآن دراسة كافية .

ولم يتخذ المسلمون الحروف العربية وحدهم ، بل اتخذها الزردشتيون أيضاً ؛ فنشأت لغة فارسية حديثة محتوية على كثير من الكلمات العربية . وأما بقايا الآداب الفهلوية القديمة فقد كثر الغلط فى فهمها لأنها فُهمت بصعوبات كثيرة و بدراسات العلماء الأور بيين .

انتفع الشعر الفارسى الحديث بالأوزان الفارسية التى كانت قبل الإسلام، إلا أن هذه الأوزان سميت بالأسماء العربية[1] ، وعُدّلت بطريقة ملائمة للقواعد العربية . لقد قدمت للخليفة المأمون حين دخوله مدينة مَرْو قصيدة فارسية نظمها شاعر يُدعى عباس . ويقول الشاعر فى القصيدة المذكورة أنه « لم ينظم أحد بهذه اللغة قبله » ، ولكن لغتها المذللة

(١) هذا رأى عجيب فنحن لا نعرف شيئاً من الشعر الفارسى القديم ، ونعرف الشعر العربى الجاهلى ونعرف الصلات المحكمة المتصلة بينه وبين الشعر العربى الإسلامى . فكيف يقال أن الأوزان العربية المتصلة السند التى نظم عليها الفرس فى العصور الإسلامية كانت أوزاناً فارسية قديمة ؛ لعل الأوزان الفارسية القديمة أثرت فى الأوزان العربية التى استعملها الفرس ، ولكن ما الأوزان الفارسية وما تأثيرها ؟ لا ندرى .

القريبة من لغة الشعر الأخيرة ومحتوياتها تدعو إلى الشك فى نسبة القصيدة إلى ذلك العهد . ومع ذلك يمكن الفرض بأن شاعراً كهذا كان فى ذلك العهد حقيقة . إذ أن ابن خرداذبة الذى ألّف بالعربية كتابًا فى الجغرافية فى ذلك العهد ، نقل فى كتابه شعراً فارسيًا لرجل يدعى عباس بن طرخان . فمن المحتمل أن يكون هذا الشاعر نفس الشاعر الذى قدّمت قصيدته للمأمون .

وقد أشير فى هذا الشعر القديم اللغة الغنى بصيغه النحوية ، إلى وقائع خاصة بسمرقند وشاش (طشقند) غير واضحة وضوحاً كافياً ، وذلك يدل على أن الشاعر من آسيا الوسطى . وفى هذا العهد نفسه كان هناك شاعر آخر يدعى محمد بن البَعيث وله قلعتان على شاطىء بحيرة أرمية . وكان هذا الشاعر يكتب أشعاره بالعربية والفارسية . ويروى الطبرى الذى ألف تاريخاً باللغة العربية ، أنه كان لهذا الشاعر أشعار فارسية مشهورة فى بلده ؛ ولكنها لم تصل إلى زمامنا ولم يُعن بها مؤرخو الأدب الفارسى . ومن المعلوم أن هذا الشاعر اشترك فى الثورة التى ثارت فى آذر بيجان ضد العرب المسلمين فى عهد المأمون ، وانضم فيما بعد إلى العرب ، ثم انفصل عنهم وثار عليهم .

ويروى أن الطاهريين (٢٠٥ — ٢٦٠ هـ = ٨٢١ — ٨٧٣ م) وهم أول أسرة إسلامية من أصل فارسى ، لم يكونوا ينظرون إلى الأدب الفارسى نظرة حسنة ، ويرون العناية به مخالفة للدين . ولكن ازدياد نشاط المانوية لا فى خراسان التابعة لهم مباشرة فحسب ، بل فى البلاد الأخرى أيضاً

(كانت السلطة العسكرية فى بغداد بيد أحد الطاهريين بعد انتقال الخلفاء إلى سامرّا) ، أدّى إلى ازدهار الحضارة عامّة وازدهار الحضارة الإيرانية خاصة . وفى أيامهم نُقلت عاصمة خراسان من مَرْو إلى نيسابور التى صارت فى مدة وجيزة إحدى مراكز الحضارة . وكانت مدينة بيهق — اسمها الحالى سبزوار — وهى قصبة ولاية بيهق ، أهم مراكز الدعاية الشيعية . وقد أنجبت هذه المدينة كثيراً من الكتاب والعلماء منذ القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) . وفى شمالى نيسابور مدينة طوس وتقع بجوارها مدينة مشهد التى بها قبر على الرضا إمام الشيعة المتوفى سنة ٢٠٣ هـ (٨١٨ م) . وقد صارت هذه المدينة قصبة خراسان .

إن الذين عملوا على انتعاش الأدب الإيرانى هم الملوك السامانيون (٢٦٢ — ٣٦٨ هـ ٨٧٥ — ٩٩٦ م) خاصة . وقد انتقل الحكم فى خراسان وفى تركستان التى كان قسم منها بيد المسلمين ، من حكم الطاهريين إلى حكمهم ، وجذبت عاصمتهم بخارى كثيراً من الشعراء والعلماء ؛ فصارت الدولة السامانية من أعظم الدول نظاماً فى القرن الرابع الهجرى . نشأ السامانيون فى بلخ وكانوا إيرانيين . وكانت اللغة الفارسية هى اللغة الرسمية فى أيام أكثر هؤلاء الحكام . ومع ذلك فقد حموا فى قصورهم كتّاب اللغة العربية إلى جانب كتّاب الفارسية . وإذا استثنيت مدة ليست ذات خطر حوالى سنة أربعين من القرن العاشر الميلادى ، فمن الممكن أن يقال إن السامانيين كانوا حماة أهل السنة ؛ ففى أيامهم ألف كتاب فى العقائد باللغة

العربية لوقاية الشعب من الرافضية ، ثم ترجم هذا الكتاب إلى الفارسية . وفى زمنهم أيضاً ترجم تفسير الطبرى إلى الفارسية ، كما ألف تفسير آخر بالفارسية ، وأفتى الناس بجواز الصلاة باللغة الفارسية كاللغة العربية . وقد ادعى علماء الدين بأن الأنبياء المتقدمين كانوا يتكلمون الفارسية حتى زمن إسماعيل عليه السلام جد العرب .

وكانت هناك رواية منذ القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) تقول أن إبراهيم عليه السلام دعا ملوك إيران إلى اعتناق دينه وهو فى قصورهم . إلا أن شعراء إيران المنشدين فى قصور الملوك السامانيين كانوا يذيعون آراء لا تتفق مع الإسلام . فالشاعر الرودكى السمرقندى الذى اشتهر قديماً ثم نُسى قال : « لا معنى لتحويل الوجه إلى القبلة والقلب منجذب إلى القدسية المجوسية . ويجب الإيمان بحب الإله العام لجميع الأديان ؛ فإن إلهك يقبل حبك ولكن لا يقبل صلاتك[1] » . وقد أظهر هذا الشاعر نفسه بصراحة تامة محبته و إخلاصه للخلفاء الفاطميين الشيعيين[2] . وعبّر عن السماء والأرض بأنهما أبو الإنسان وأمه . وهو يرمى بذلك إلى الآراء الخاصة بالمجوسية . وقال الرودكى عند وفاة أحد معاصريه:

---

(١) لو دلنا المؤلف على قول الرودكى بالفارسية لأمكن أن نقطع برأى فى هذه المسألة ثم مَن الشعراء الآخرون غير الرودكى ؟

(٢) مات الرودكى قبل استيلاء الفاطميين على مصر بنحو ثلاثين سنة .

« إنه رفع روحه السامية إلى السماء ، ووارى جسده الأسود التراب » .

وأما الشاعر الدقيقى الذى حاول نظم الأساطير الايرانية لأول مرة فقد صرّح بعلاقته بالعقيدة الزردشتية قائلاً إنه يفضّل الخمر وشفتى حبيبه [ودين زردشت] على كل شىء آخر [1] .

وفى القرن الرابع الهجرى نفسه ، عصر بنى بويه (العاشر الميلادى) ، أخذ المستولون على ساحل بحر الخزر الجنوبى يهاجمون البلاد الإيرانية المتفوقة حضارة ، منتهزين فرصة ضعف الخلافة . وقد جعل بعض القائمين برياسة هذه الحركة إزالة الخلافةَ وإحياء الدولة الساسانية غاية صريحة له . ومن الدول التى نشأت من جنوب بحر الخزر الدولة البويهية ، وهى التى استولت على بغداد وقضت على سلطان الخليفة الدنيوى . وطبع ملوك هذه الدولة على مسكوكاتهم كلمة « شاهنشاه » ، وهو لقب ملوك إيران قبل الإسلام . ولم تكن الدولة البويهية دولة تديرها يد واحدة ، أى أنها لم تكن دولة مركزية تابعة لحاكم واحد . فقد اقتسم أعضاء الأسرة فيما بينهم البلاد التى استولوا

---

(١) يشير المؤلف إلى هذين البيتين وهما :

دقيقى چار خصلت بركزيده است   بگيتى أز همه خوبى وزشتى

لب ياقوت رنك وناله‌ٔ چنك   مى خون رنك ودين زردهشتى

أى « الدقيقى أختار أربعة أشياء من كل الخير والشر فى الدنيا : الشفة فى لون الياقوت ، وزمزمة العود والخمر القانية ودين زردهشت » ، وقد سقطت كلمة دين زردهشت من أصل الكتاب وعليها يتوقف الاستشهاد . مقدمة الشاهنامة ص ٣٨ .

لعبد الوهاب عزام

عليها . وكان التفوق السياسى ينتقل من شخص إلى شخص . ولم تكن للدولة عاصمة معينة . فالمدينة التى يقيم فيها الأمير الأقوى هى العاصمة . ومهما عمل هذا النظام فى إضعاف الدولة ، فإنه ساعد على رقى حضارة المدن وازدياد مراكز الحضارة ؛ فكان كل أمير يجمع فى قصره العلماء والشعراء مجتهداً فى ترقية حضارة مدينته . انتقلت الحياة الحضارية رويداً رويداً من مراكز الحضارة القديمة كبغداد والبصرة إلى المدن الإيرانية الجديدة أمثال الرى (بجنوب شرق طهران) و إصفهان وشيراز ، وجمع فيها الأمراء كتباً وأنشأوا مكتبات كبيرة . ونالت العلوم الوضعية أيضاً حماية الأمراء . و يروى أنه كان بشيراز مرصد فى زمن البويهيين ، وقد أمكن بفضل دقة أجهزته أن يتقدم فى بحث المسائل الفلكية بالقياس إلى العهود السابقة للإسلام . وأنشأ أحد الوزراء البويهيين فى بغداد مجلساً للعلماء وخصص اليوم الأول لعلماء الفقه ، واليوم الثانى للأدباء ، واليوم الثالث لعلماء الكلام ، واليوم الرابع للفلاسفة .

والحقيقة أن البويهيين لم يأتوا من جنوبى بحر الخزر بأى تراث أدبى ؛ فمن أجل ذلك اندفعوا فى تأثير الأدب العربى اندفاعا تاماً ، ولم يقدروا للأدب الإيرانى قيمة ؛ فلم يشتهر أحد من شعراء إيران فى البلاد التى لهم سلطان عليها . فى حين أن الشعر الإيرانى ثابر على التقدم فى العهد نفسه ، فى البلاد التابعة للسامانيين والغزنويين ، حلفائهم فى إيران الشرقية .

وأما الفردوسى الذى نشأ فى طوس بخراسان فقد ألف الأساطير الإيرانية ابتداء من عهد الأساطير إلى العهد الإسلامى ، فى قصة منظومة . وهو على

رأس شعراء إيران الذين حفظوا شهرتهم إلى اليوم . ذكرنا آنفاً أن هناك شعراء حاولوا أن يصنعوا فى القرن العاشر الميلادى ما صنعه الفردوسى فيما بعد[1] ؛ فإن بعض المواضيع الأسطورية والآثار الأدبية الخاصة بالعصور السابقة للإسلام ، كتبها بالفارسية الحديثة شعراء إيران المتقدمون معتمدين على تراجمها العربية أكثر من أصولها . ولكن شاهنامة الفردوسى بقيت كنزاً قوميا للشعب الإيرانى كله . وكانت الشاهنامة كتاباً يقص البطولة ؛ فقد رغب فيه الأرمن والكرج والترك من الأقوام المتأثرة بالحضارة الإيرانية . ولهذا الكتاب مكانة ممتازة فى آداب العالم . إذ أن الأقوام الأخرى عاشوا عصورهم السياسية بعد أن فقدت أساطيرهم بهجتها بتأثير الكتاب . وأما الإيرانيون ، فقد ثابروا فى عهد الساسانيين وفى العصور الإسلامية الأولى ، على الحياة تحت تأثير التقاليد الأسطورية ، بالرغم مما بلغ الكتاب من التأثير ؛ فمهما تغيرت الحال بازدهار حياة المدن وانقراض طبقة الأشراف فى العهد الإسلامى ، فإن الشاهنامة أنشأت كثيراً من المقلدين لها . فمن ذلك العهد حتى نهاية القرن التاسع عشر ، دامت الإشادة بالأعمال الباهرة التى قام بها الملوك ، على أسلوب الفردوسى . إلا أن هذه الكتب جميعها ضعيفة كتلك الكتب التى أنتجها العهد التقليدى (classique) المختلق فى أوربا . والفرق الوحيد هو أن الإيرانيين تابعوا أستاذهم القومى الكبير بينما الأوربيون قلدوا اليونان .

---

(١) الفردوسى نظم الشاهنامة فى القرن العاشر الميلادى أيضاً (الرابع الهجرى) .

لم يكن ممكناً فى زمن الفردوسى إدراك ما ينتجه هـذا الكتاب من النتائج من الوجهة الأسطورية . وكان خصوم الأساطير هم علماء الدين الذين ينكرون الإشادة بالأبطال المجوسيين بهذه الصورة ، ولكنهم لم يكونوا قادرين على محو مالهم من المكانة والشهرة . غير أنهم لم يتوانوا فى إقامة العراقيل أمام أولئك الشعراء وهم أحياء . قدّم الفردوسى قصته إلى السلطان محمود ولكن القصة كان قد تم نظمها قبل جلوس السلطان محمود على العرش (١) . وقد تأثر السلطان بالبيئات الدينية ، وهو يعد نفسه حامياً لأهل السنة ، فخيب آمال الشاعر فيه . فثأر الفردوسى لنفسه من السلطان بقصيدة هجاه بها ، ثم اضطر إلى البحث عن ملجأ له فى قصور غيره من الملوك . ولم يجد الفردوسى عوناً من البويهيين المحافظين على التقاليد الساسانية . إن الشاعر الذى تأثر بضيق المعيشة نظم قصة يوسف وزليخا مستنبطة من القرآن وهو فى قصر أحد البويهيين . وقد تبرأ الشاعر الشيخ فى مقدمة منظومته هذه من كتابه السابق ، وعاب على نفسه إشادته بأبطال المجوسية و بطولاتهم المختلقة . ولما عاد إلى وطنه طوس ، كان رجال الدولة قد نسوه ؛ ولكن علماء الدين لم يعفوا عنه حتى بعد موته ، وامتنعوا عن دفنه فى مقابر المسلمين (٢) .

وهكذا ازدهر الأدب الفارسى فى القرن الرابع وأوائل القرن الخامس

---

(١) يرجع إلى مقدمة الشاهنامة العربية للدكتور عبد الوهاب عزام لمعرفة تاريخ نظم الشاهنامة بالتفصيل .

(٢) يرجع فى تحقيق هذه الروايات إلى مقدمة الشاهنامة العربية .

الهجريين (العاشر وأوائل الحادى عشر الميلاديين) فى القسم الشرقى من إيران خاصــة . إلا أن علماء إيران المؤلفين باللغة العربية وجدوا البيئة الأصلح لهم فى غربى إيران . وكلما توثقت العلاقات بين الأقاليم زاد هذا الاختلاف اضمحلالاً . ولم تكن درجة اكتمال العلم فى ذلك العهد تستدعى التخصص كما فى أوربا الآن . فكان فى إمكان العلماء ممارسة علوم عديدة موفقين ناجحين فى جميع تلك العلوم بدرجة واحدة ، وأن يجدوا فى الوقت نفسه فراغاً للنشاط الأدبى .

ومن أولئك العلماء ذوى النواحى الكثيرة ، ابن سينا . ولد فى سنة ٣٧٠ هـ (٩٨٠ م) فى إحدى قرى بخارى ؛ وخدم الأمراء البويهيين فى همذان وإصفهان ؛ وكان وزيراً لآخرهم مدة . تلقى القرآن والآداب فى طفولته على أستاذه فى قريته ، ودرس العلوم الرياضية والطبيعية على دعاة الإسماعيلية الذين كانوا يقدمون إلى بخارى فى ذلك العهد . وأتم جميع العلوم ومنها الطب فى الثامنة عشرة من عمره . وكان الطب أسهل العلوم عنده ، وانتفع به فيما بعد كثيراً . واستصعب ابن سينا ما وراء طبيعة أرسطو ، ولم يقدر على حل معضلات هــذا العلم الكثيرة إلا بعناء كبير ، مستعيناً بكتاب للفارابى وجده فى السوق مصادفة وابتاعه بثلاثة دراهم . ومهد له علمه بالطب طريقاً إلى قصر أحد ملوك الدولة السامانية ، ثم إلى مكتبة القصر الغنية . ولعل أحداً ، غير ابن سينا . لم ينتفع بما فى هذه المكتبة . وفى أواخر القرن الرابع غادر ابن سينا بخارى ، ويحتمل أن يكون قد غادرها لأن الدولة

السامانية قد أخذت تنقرض على أيدى الأتراك . انتقل أولا إلى خوارزم ، ثم انتقل من الأقاليم الواقعة على ساحل بحر الخزر إلى خراسان و إيران الغربية . و إلى علمه بالطب يرجع الفضل فى اتصاله بالأمراء البويهيين . وكتابه الطبى المسمى بالقانون أحد مؤلفاته العلمية العظيمة ، وقد وضعه مع تلاميذه . وتستعمل كلمة القانون فى العالم الإسلامى ، فى معنى يخالف معناها فى أوربا ، للقانون غير الدينى ، و يسمى بهذا المصطلح ، كما كان فى بوزنطة ، بعض القواميس العلمية أيضاً لأنه فى نظرهم « مجموع قوانين العلم » . و يسمى كتابه الثانى الباحث فى المنطق والحكمة والطبيعيات والرياضيات وعلم الفلك والإلهيات ، كتاب الشفاء . وقد ألف بن سينا مع تلاميذه معجماً لمختلف العلوم باللغة الفارسية لأمير إصفهان(١) وأعطى المنطق المنزلة الأولى بين العلوم . ثم شرحت أصول العلويات أى الإلهيات (ميتافيزيقا وتيولوجيا) والسفليات ، أى الطبيعيات بالترتيب ، ثم بُحث فى الحساب والهندسة والهيئة والميكانيكا التى كان مجموعها يدعى فى القرون الوسطى الحكمة الرباعية quadrivium . ولابن سينا بين مؤلفاته الكثيرة العدد كتاب منظوم بالعربية فى الطب ، ورباعيات صوفية بالفارسية . واشتغل فى أواخر عمره بفقه اللغة العربية أيضاً . إن هـذا النشاط العلمى والأدبى الواسع الخارق للعادة لم يمنع ابن سينا من أن يحيا حياة مضطربة . فتوفى عام ٤٢٨ هـ (١٠٣٧ م) ولما يبلغ الستين من عمره . ومع أن ابن سينا لم

(١) لعله يقصد الكتاب المسمى دانش نامه' علائى .

يكن فى شعبة من شعب العلوم صاحب رأى جديد مستقل ، فقد وفق لدرس كل علوم عصره دراسةً تامةً ولتأليفها فى صورة مفهومة واضحة .

فمن أجل ذلك اكتسب شهرة عظيمة فى العالم الإسلامى ثم فى أوربا فيما بعد . وقد اعتمدت الفلسفة التى نهضت فى القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) فى إيران على كتب ابن سينا واستمرت حتى القرن الثالث عشر الهجرى (التاسع عشر الميلادى) وقد اشتهر ابن سينا فى البيئات الدينية أو الشعبية بضروب من السحر ، كما كان الدكتور فاوست فى القرون الوسطى .

وأما أبو الريحان البيرونى (٣٦٣ — ٤٤٠ هـ = ٩٧٣ — ١٠٤٨ م) الذى عاصر ابن سينا والذى جادله فى بعض المسائل العلمية جدالاً عنيفاً ، فعالم يختلف عن هذا الطراز كل الاختلاف . إن هذا العالم المولود بخوارزم ، إذا استثنى زمن رحلته إلى جرجان (حرقانية القديمة) الواقعة على الساحل الجنوبى لبحر الخزر ، وزمن رحلته إلى الرى ، ظل فى وطنه حتى بلغ الأربعين من عمره مستشاراً لأميرها . وأقام بعد ذلك فى قصر السلطان محمود الغزنوى وخلفائه وقام برحلات عديدة إلى الهند . وبناء على قول أحد متخصصى أوربا المعاصرين ، أن هذا « المؤلف العديم النظير » ألف كتباً قيمة فى قوانين الهيئة وفى أصول تواريخ chronologie الأقوام المختلفة ، وألف كتاباً قيماً عن الهند يدل عل نظر واسع وحياد علمى تام . وفى كتابه عن الهند معلومات واسعة عن الأديان والعلوم التى بها وقد

استقاها البيرونى عن منابعها السنسكريتية الهندية مباشرة(١) .

كان للبيرونى علم تام بمدارس بغداد والبصرة العلمية ، إلا أن نظرات أولئك العلماء كانت متأخرة بالقياس إليه . لقد وصف الجاحظَ وهو أكبر علماء البصرة فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) بأنه « ساذج سريع التصديق » . ومع ذلك لم يبدع البيرونى مذهباً جديداً لا فى الرياضة ولا فى الهيئة ، بل ظل مؤمناً بالتنجيم مشاركاً معاصريه فى ذلك : ومن كتبه نطّلع على وجود « المتحررين من الآراء الشائعة » قبل البيرونى ؛ فقد نظم عالم يدعى أبو سعيد السجزى ، أسطرلابا معتمداً على نظرية حركة الأرض وعدم حركة الأجرام السماوية . ولم يتبع البيرونى فى هذه المسألة الرأى العام بل سماها مسألة مشكوكة عسيرة الحل . وقد تعجب أحد علماء العرب فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) من استصعاب البيرونى مسألة حركة الأرض ، مع أن هذا الرأى جرحه ابن سينا وجرحه من قبله الطبيب الفلكى الرازى (المتوفى سنة ٣٢٠ هـ ٩٣٢ م) .

إن آراء البيرونى فى المعتقدات الدينية الغريبة وخاصة فى الأديان الهندية لحرى بعناية قراء اليوم ؛ فقد أدرك البيرونى أن المعتقدات الدينية تابعة لأسباب واحدة فى كل مكان . وكان يهتم بالفرق بين دين الخواص ودين العوام فى كل موضع ؛ فهو لا يعترض ولا ينقدُ مطلقاً

---

(١) هو كتاب : « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة » طبع فى ليدن سنة ١٨٨٧ م باعتناء المستشرق الألمانى إدوارد سخاو .

حينما يشرح العقائد الدينية ، وهو كذلك يحافظ ما أمكن على العبارات التى يستعملها معتنقو كل دين . وإذا قارن دينًا بدين آخر فإنما يقارنهما مقارنة علمية محضة . وفى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) أتحفنا اليعقوبى فى تاريخه بمعلومات مفصّلة محايدة بالطريقة نفسها عن محتويات الكتب الدينيــة النصرانية . وفى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) وفى قصر الغزنويين أيضًا ألف بالفارسية كتاب فى الأديان . وقد ذكر البيرونى كتاب أستاذه الإيرانشهرى (ولم تصل إلينا معلومات عن حياة هــذا العالم ومؤلفاته) فى النصرانية واليهودية والمانوية . ولكن حينما ذكر بحثه فى أديان الهند قال إنه أخطأ فيهــا بعض الأخطاء لتصديقه كلام رجال لا يجيدون معرفة أديانهم . إن مؤلفات البيرونى تشغل مكانة ممتازة بين منتجات الأدب الإسلامى المعلومة لنا ، من حيث وفرة موادها وما فيها من الاعتناء بتطبيق الأصول العلمية . ومع ذلك أظهر عصبيته الايرانية حينما ذكر الحضارات السابقة للإسلام وهدم العرب لها ؛ البيرونى شيعي فى آرائه الدينية . وهو ككل إيرانى مثقف تثقيفًا عاليًا ، يظهر محبة نحو المانوية ، ولا يميل إلى أى نوع من الإصلاح فى السياسة ، وكان « الاتحاد بين الدين والدولة » بتعبير اليوم ، مثله الأعلى النظام السياسى وغاية للرغبات الإنسانية ، وكان هذا أمنية الغزنويين . ولعل السبب لعدم انتشار كتب البيرونى كونها مؤلفة بلغة عسيرة جدًا . إنها شغلت مكانًا جديرًا بها لدى العلماء زمنًا

طويلاً ، ولكنها كانت بالإجمال قليلة التأثير . وقد ترجم يهودى إسبانى يدعى إبراهام بن عذرا أحد هذه الكتب ، وهو جداول الهيئة ، إلى اللغة العبرية فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) . وفى الجملة ظلت كتب البيرونى مجهولة عند الأوربيين حتى القرن التاسع عشر . ويقول البيرونى نفسه إنه إنما ألف كتبه للعلماء لا للعوام . وليس نشاط البيرونى فى ساحات مختلفة كابن سينا . وقد ترجم مع مؤلفاته العلمية بعض القصص الإيرانية إلى اللغة العربية ، وكتب أشعاراً عربية ، إلا أنه كان يعد اشتغاله بالأدب تسلية للنفس لا غير .

والخلاصة أن القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) يُعد عصر انقضاء العهد الذهبى للحضارة الإسلامية وبدء دور الانحطاط ؛ إلا أن التقدم فى بعض شعب الحياة الحضارية دامت بضع قرون أخرى فى إيران على الأقل . وقد انتقلت الحياة فى القرن الخامس الهجرى بشكل قطعى ، من الشهرستانات القديمة إلى الأحياء المنشأة فى العهد الإسلامى ، وتكونت فى كل مكان أصول حياة المدن كما أوضحناها سابقاً . ولكن اتساع المدن اتساعاً أكثر كان فى العصور المتأخرة . وكان محيط دائرة مدينة إصفهان ، وهى أكبر مدينة فى القرن الخامس الهجرى نحو عشرة أكيال ونصف .

قد أخذ ازدهار فن العمارة يبدو شيئاً فشيئاً . وأقدم أثر إيرانى إسلامى معروف التاريخ وصل إلى زماننا هو الضريح المقام على قبر قابوس ابن وشمكير أمير جرجان ، يرجع إلى نهاية القرن الرابع (بداية القرن

الحادى عشر الميلادى) . وأنشىء هذا المبنى الذى أقيم فى ٣٩٧ — ٣٩٨هـ (١٠٠٦ — ١٠٠٧ م) على الطراز الخاص المعروف كثيراً فى البلاد الواقعة على ساحل بحر الخزر والقوقاز والظاهر فى منارات الكنائس أيضاً (شكل مخروطى ذو أضلاع متعددة) . وقد سمّى هذا الضريح فى كتابته العربية قصراً . وسمى الأضرحة الشبيهة به بهذا الإسم نفسه فى بعض جهات إيران كأصفهان مثلاً . ويسميه سكان تلك الجهات فى أيامنا گنبد (قبة) . ولعل تغيير أسماء هذه الأضرحة ناشىء من بناء الأضرحة فى الأزمان الأخيرة ذات قباب . ومن أقدم القباب المبنية على هـذا الطراز البناء المقام على قبر السلطان سنجر بمدينة مَرو ، أنشىء فى أواسط القرن السادس (الثانى عشر الميلادى) بقبة واطئة . وضريح قابوس بناء ارتفاعه مائة وخمسة وسبعون قدماً ، يعتمد على جدران سمك كل واحد منها أربعة أذرع مبنية بالآجر . ولم يمكن فى العصور المتأخرة إنشاء مبان ذات نفقات باهظة إلى هذا الحد . والآجر المستعمل فى المبانى المتقدمة هو فى الجملة أجمل من الآجر المستعمل فى المبانى المنشأة فى العصور المتأخرة وأحسن وأكبر حجماً . إلا أن استعمال الآجر لم يكن كثيراً فى تلك الأزمان . وأخذ الناس يتعودون فى العصور الأخيرة ، كما فى مدن أوربا الآن ، استخدام المواد الرديئة للتقليل من تكاليف المنشآت .

إن تاريخ فن العمارة الإسلامى فى إيران لم يكتب إلى الآن كتابة جديرة به ، ولا يزال شرحه شرحاً وافياً فى حاجة إلى أبحاث كثيرة ؛ فطراز

المساجد فى عصر الدولة البويهية مجهول . يقول ناصر خسرو ، وهو مؤلف إيرانى فى القرن الحادى عشر الميلادى : « كانت فى كل مملكة جوامع شيعية ، كل جامع يمتاز عن غيره بجمال » ولكن لم يبين هندسة تلك المبانى . وأما تقارب طراز فن العمارة فى البلاد المختلفة — حيث يرى هذا التقارب — فكان بفضل النجاح الذى نالته الدولة التركية السلجوقية التى نشأت من آسيا الوسطى ؛ فقد استولى السلاجقة على جميع إيران فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، وسيطروا حيناً على جميع البلاد الإسلامية من البحر الأحمر والأبيض المتوسط إلى حدود الصين .

عصر السلاجقة

كان يُنتظر هجمات من البلاد الواقعة شرقى إيران إلى غربيها ، منذ القرن الثالث الهجرى (بداية القرن العاشر الميلادى) ، وكان البويهيون ، رغم حمايتهم للفلسفة وخدماتهم للحضارة ، يُعدون طلائع برابرة سواحل بحر الخزر ، المخلين بالرفاه والنظام ، على عكس السامانيين ؛ فكان يُتوقع ظهور ملك عالم فيلسوف من الشرق ، من خراسان التى كانت فى حكم السامانيين ، ويُرجى إعادته للنظام فى الغرب . إلا أن الآمال المنتظرة لم تتحقق كاملاً ؛ فبدل قدوم ملك عالم إلى الغرب ، جاءت طلائع قوم رحل متأخرين عن مواطنى البويهيين حضارة ؛ فإن سلاطين السلاجقة لم يقدروا على تعلم القراءة والكتابة حتى بعد حكمهم فى إيران مائة عام . ولما انقرضت دولتهم

فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) انتقل الحكم إلى دول معظمها من الترك . ورغم هذه الحالة هيأت فتوح السلاجقة ساحات واسعة لا لشعراء خراسان وفقهائها فحسب ، بل للذين حفظوا التقاليد السياسية لعصر الغزنويين . ومنهم الوزير نظام الملك الطوسى الذى كان مدة طويلة (٤٥٧ — ٤٨٥ هـ = ١٠٦٤ — ١٠٩٢ م) أكثر رجال الأمبراطورية السلجوقية نفوذاً .

أُتخذت فى عصر السلاجقة وسائل للمحافظة على ترقية حياة المدن ورفع شأن التجارة والصناعة ، وانشئت مبان عظيمة حفظ بعضها إلى اليوم . وتكونت فى إيران الغربية مدن محاطة بأسوار مبنية بالآجُر . ووجد شعراء إيران فى قصور السلاجقة والأسر التى تلتهم فى الحكم حماية وتشجيعاً . وقد قُدمت قصة تسمى ويس ورامين إلى السلطان السلجوقى الأول فى ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م) . وهى قصة مترجمة إلى الفارسية الحديثة من اللغة الفهلوية القديمة التى كانت فى ذلك العهد منسية تماماً ، ترجمها فخر الدين أسعد الجرجانى . ويؤخذ من قوله أن الكتب المؤلفة بهذه اللغة ما كان كل واحد يستطيع قراءتها والذين يقرأونها لا يفهمونها . إن اثنين من شعراء إيران ، وهما أنورى شاعر السلطان سنجر ، ونظامى الذى عاش فى گنجه بالقوقاز ومات بها والذى اشتهر بقصصه المنظومة ، يُعدان أكبر شعراء إيران باعتراف الإيرانيين أنفسهم . ويجعل بعض العلماء الأوربيين كذلك مكانة نظامى بعد الفردوسى . وأثرت مؤلفات نظامى فى الشعر

التركى أيضاً لا فى الشعر الإيرانى وحده .

ضمن السلاجقة تفوق أهل السنة فى إيران ولكنهم لم يقدروا على إزالة الشيعية منها إزالة تامة ؛ ففى القرنين الخامس والسادس الهجريين (الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين) كان عهد جدال دينى عنيف فى إيران ، ولكن تفصيلاته لم تدرس إلى اليوم دراسة وافية . واتجهت الدعاية الإسماعيلية فى نهاية القرن الخامس الهجرى إلى جهة جديدة ؛ فاستولى الإسماعيلة على أماكن كثيرة حصينة فى كل أرجاء إيران ، بل فى سورية أيضاً . وهذا يدل على أن هذه الحركة لم تكن حركة قومية محضة . ويجب أن تكون منافع الطبقات ذات شأن خطير فيها . لم يكن الصراع الحالى بين أصحاب الأراضى و بين الذين يعملون فيها كما حدث فى القرن التاسع عشر ، بل كان بين أصحاب القلاع المحصنة و بين سكان المدن . وكانت معاقل الإسماعيليين الجهات التى لم تزدهر فيها حياة المدن إلا قليلا ، وخاصة قُهستان (بلاد الجبل) الواقعة بجنوب غربى خراسان التى كان ثلثا قلاع الإسماعيلين بها . ثم المنطقة الجبلية فى شمالى قزوين التى كان يقيم بها رئيس المذهب فى قلعة ألموت الحصينة . وقد وقع أشد الصراع فى ولاية فارس التى بها المدن الكبرى والقلاع الحصينة فى أطراف إصفهان . ولم يكن الإسماعيليون يتورعون من القضاء على خصومهم باغتيالهم غير مكتفين بحربهم جهاراً : وكانت للمذهب هيئة سرية مكونة من الفدائيين المغالين فى التعصب ، يؤمن أفرادها بإمكان قتل من يريدون قتله أيا كان هو .

وكان لتعاطى الحشيش تأثير فى شجاعة هؤلاء المتعصبين . وقد أخذت كلمة أساسين الفرنسية من كلمة الحشاشين العربية ، أى المتعاطين للحشيش . وتدل هذه الحالة على أن نظام الإسماعيلية ترك تأثيراً شديداً فى الأوربيين فى القرون الوسطى . لم تكن حصون الإسماعيليين لتدبير الإغتيالات السياسية فحسب ، بل دُبرت فيها أمور حضارية أيضاً ؛ فكانت لمكتبة ألموت ومرصدها شهرة واسعة . ونشأ من هذه القلعة عدة من العلماء قاموا بخدمات جليلة فى إيران فى العهد المغولى . ومن هؤلاء العلماء نصير الدين الطوسى صاحب المؤلفات فى الفلسفة والهيئة والرياضة وفى العقائد الشيعية . ورشيد الدين المؤرخ اليهودى الأصل الذى نشأ من مدينة إصفهان .

كان الإسماعيليون قوة سياسية لا يستهان بها وإن لم تكن لهم ساحة معينة مجتمعة . عملوا أولاً مع خلفاء مصر الفاطميين ، ونشروا دعاياتهم بأسمائهم وعلى حسابهم . ولكن ساءت صلتهم بالفاطميين فى نهاية القرن الخامس الهجرى بل حدث فى نهاية القرن السابع تفاهم بينهم و بين الخلفاء العباسيين ، حماة أهل السنة ، أدى إليه عداوتهم جميعاً لسلاطين الترك .

وأما الثورات التى قامت فى مدينة الرى و إصفهان ونواحيهما قبيل هجوم المغول فى القرن السابع (الثالث عشر الميلادى) ، فليس بمعلوم إلى اليوم هل كان للدعايات الإسماعيلية أثر فيها أم لا ؛ فقد كان فيها نزاع بين الحنفية والشافعية وهما شعبتان من أهل السنة ، غير المنازعات بين الشيعة وأهل السنة ؛ فمع الشيعة أكثر القرويين ، ومع الحنفية أكثر

أهل المدن . ولكن الشافعية انتصروا على جميع خصومهم فى الرأى . ولعل نضالا استمر هنا تحت ستار الدين وهو فى الحقيقة نضال اجتماعى بين القرية والمدينة ، وبين الطبقة الأرستقراطية والطبقة الديمقراطية المقيمة فى المدن .

إذا لزم الحكم فى هذه المسائل ، اعتماداً على التمحيصات العلمية الحالية ، تبين أن قواد الشعب فى حركاته السياسية والحضارية فى ذلك العهد ، كانوا لا يزالون بعيدين عن الآراء السياسية والقومية ؛ فإننا نجد مجهودات فردية من مدن وأقاليم مختلفة لتحسين الحياة فيها ، زيادة على الصراع بين الطبقات ، وفى هذا العهد ظهرت مجموعات تاريخية Compilation أكثر بحثها فى مدن وأقاليم مستقلة . وقد ضاقت فكرة إنشاء دولة إسلامية عامة ، بل إنشاء دولة إيرانية رويداً رويداً بسبب تخصص الأقاليم الذى نشاهده بعد انقسام الدولة السلجوقية الكبرى خاصة . وكان رأى «وجوب عدم إخراج الضرائب المحصلة من سكان كل إقليم لتحسين حالتهم المحلية ، أى عدم اجتماع الأقاليم المختلفة تحت حكم دولة واحدة» يُعد من الحقائق التى لاسبيل لردها . وكان نتيجة هذه الحالة عدم الاعتراف للدول الكبرى بالتفوق على الدول الصغرى ، ولكن جمع السلطان محمد الملقب بخوارزمشاه أى ملك خوارزم ، قسما من آسيا الوسطى وكل إيران تحت حكمه فى أواخر القرن السابع (الثالث عشر الميلادى) . ويرى ابن الأثير المؤرخ المعاصر أن سهولة استيلاء المغول من هذا السبب ؛ فلو كانت

هناك دول كبيرة متعددة كما كانت سابقاً لاضطر المغول إلى أن يهزموا كل دولة منها منفردة . ولكن خوارزمشاه قد قضى على الدول الأخرى ، فلم يجد المغول أمامهم عدواً بعد أن هزموا الدولة الخوارزمشاهية .

لم يكن ازدهار حياة المدن خالياً من التأثير فى التجارات الداخلية والخارجية والبرية والبحرية رغماً من اشتداد الانفصال والتفرق السياسيين . وأما التجارة البحرية مع الهند والصين فقد حسنت حالة مدينة هرمز وجزيرة قيس الواقعة عند ملتقى خليج البصرة ببحر الهند . وقد نتج عن العلاقات التجارية بين خوارزم وحوض نهر ڤولجا أن اعتنق بلغار إيديل الدين الإسلامى منذ القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ولعل هذه التجارة زادت نشاطاً فى العصور التى تلته . وكانت صادرات ساحة البلغار والبلاد المجاورة لها فى القرن العاشر الميلادى هى الفراء والجلود المصنوعة صناعة دقيقة ، والعسل وشمعه والسمك . وكانت مدينة بلغار الواقعة على شاطىء نهر ڤولجا بلدة صغيرة بيوتها مبنية بالغاب واللبد وقليلة السكان . ولما قدم المغول صارت مدينة ذات مبان حجرية لا يقل سكانها عن خمسين ألف نسمة ، وترقت صناعة الجلود فيها كثيراً . ثم ورثها الروس . وكانت الأحذية البلغارية من أهم صادرات هذه المدينة ولها شهرة واسعة حتى فى التركستان . ولا توجد سجلات تاريخية عن تعارف

تجار العرب والإيرانيين مع الروس مباشرة . وقد شرع الروس فى مهاجمة البلاد الإسلامية منذ القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وهدموا مدينة بردعة الواقعة على حوض نهر « كُر » وهى من المدن الرئيسية بالقوقاز من حيث كثرة السكان . ثم بلغ الروس كذلك مع البلغار لأجل التجارة جهات « خوالم » أو « خوالن » أى حتى بحر خوارزم (بحيرة آرال) ومنه إلى « أورنج » أى « أورگنج » وهى عاصمة خوارزم . وكانت للكتان الروسى شهرة كبيرة فى الشرق .

وانتشر الدين الإسلامى فى القرن الرابع للهجرة فى قبائل الترك الرحل وفى بعض مدن التركستان الصينية بواسطة التجارة وبدون استخدام أى سلاح ؛ فكان الأتراك الذين استولوا على البلاد الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى مسلمين . وتوغل التجار المسلمون فيما بعد نحو الشرق . وكانت التجارة بين الصين وبلاد المغول بأيديهم فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) وقد وُجد المسلمون فى جيش جنكيزخان حتى قبل فتوح الشرق . إلا أن نجاح التجارة الإسلامية هذا لم يُنتج دعاية دينية إسلامية كما حدث فى التركستان وسواحل ڤولجا . وُجد الأدب النصرانى والمانوى فى اللغة الصينية منذ القرن الثامن الميلادى ولم يكن عدد المسلمين فى الصين أقل من عدد النصارى والمانويين ، ومع ذلك لم يظهر الأدب الإسلامى فيها إلا فى القرن السابع عشر الميلادى . وأما فى بلاد المغول فلم يعتنق منهم قوم الديانة الإسلامية بعد هذا التاريخ أيضاً . فى حين

أنا نرى منهم من اعتنق المانوية فى القرن الثامن الميلادى والنصرانية فى القرن الحادى عشر الميلادى . وكان مسلمو إيران أكبر ممثلى التجارة والحضارة للأتراك والمغول ؛ فكلمات « سارت ، سارتاق وسارتاول » التى نقلها الترك سابقاً من الهند بمعنى التاجر ، صارت اسماً أطلقه الترك والمغول فيما بعد على الشعب الايرانى المستقر . ثم خلقت الأساطير المغولية بطلاً يدعى « سارتاقتاى » يبنى الخزّانات ويحفر الترع (وكلمة تاى أداة تلحق بآخر أسماء الذكور فى اللغة المغولية) .

ولعل التجارة مع الممالك غير الاسلامية كانت بطريقة المبادلة ، وكانت المعاملات التجارية مع روسيا الجنوبية تجرى على أساس السكة الفضية حتى بداية القرن الحادى عشر الميلادى . وقد أدخلت فى روسيا كمية كبيرة من السكة الفضية التى وردت إلى الممالك الاسلامية . ثم تحول نظام السكة الفضية الذى بقى من عهد الدولة الساسانية إلى نظام السكة الذهبية . وفى نهاية القرن الخامس الهجرى (نهاية القرن الحادى عشر الميلادى) أخذ العالم الاسلامى يحس بأزمة السكة الفضية ، ثم انتقلت هذه الأزمة رويداً رويداً من الشرق إلى الغرب فضُربت سكك نحاسية بدل الدراهم الفضية . على أن التعامل بالسكك النحاسية لم يتجاوز الأقاليم التى ضربت فيها . ودخل هذا النظام فى الدولة العباسية أيضاً فى القسم الغربى من آسيا . إلا أن السكة الفضية أعيد ضربها فى القرن السادس

الهجرى (الثانى عشر الميلادى) . وأما فى الشرق ، فقد كانت السكك النحاسية مستعملة فيها حتى فى عهد قدوم المغول إليها . ولكن لا تدل المراجع التى بأيدينا على ما كان لتغير نظام السكة من التأثير فى حياة الشعوب الاقتصادية وخاصة فى التجارة .

الفصل الخامس

فتوح المغول وتأثيرها فى الحضارة الإيرانية

كان التجار المسلمون مستشارى جنگيزخان الأول وعاونوه معاونة كبيرة فى محاربة العالم الإسلامى . والسبب الرئيس لحروب جنگيزخان هذه هو السلطان محمد ملك خوارزم (خوارزمشاه) . فقد نهب حاكم أوترار (فى التركستان) القريبة من الحدود قافلة قادمة من بلاد المغول ، وقتل أربعمائة وخمسين رجلاً من المرافقين لها فى سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) . وفى سنتى ٦١٧ و ٦١٨ هـ (١٢٢٠ — ١٢٢١ م) استولى المغول على جميع التركستان وخوارزم ، ولم يكن بد من معاودة الحرب فى الشرق الأدنى مرات عدّة . ولم تقع بغداد فى أيدى المغول إلا فى ٦٥٦ (١٢٥٨ م) . وبهذه الصورة تألفت دولة مغولية كبيرة محتوية على إيران وما بين النهرين وآسيا الصغرى ، و بقيت التركستان فى سلطان فرع آخر من الدولة الجنگيزية . وقد أُخرِبت قلاع الإسماعيليين مع دولة السلطان والخليفة ، ولم ينشىء المغول قلاعاً جديدة بعدها . وأما الإمارات المحلية التى بإيران الجنوبية فخضعت للمغول باختيارها ولم تتخل عن الحكم إلا فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، وسلمت ولايتا فارس وكرمان من عادية الجيش

المغولى . ودامت الحياة القديمة فى المدن الكبرى وخاصة فى شيراز ؛ فلذا اكتسبت فارس خطورة عظيمة لم تنلها من قبل من حيث الحضارة الإيرانية[١] . وقد حمت الأدبَ الفارسى الدولة السلغورية التى اجتازت فتوح المغول سليمة ، والدولة المظفرية التى حكمت نصف قرن بعد تفرق الدولة المغولية ؛ فبأولى الدولتين يرتبط اسم الشيخ سعدى شاعر القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ، وبالثانية اسم حافظ شاعر القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ارتباطاً وثيقاً . وقد قُرئت كتب هذين الشاعرين اللذين لم يفقدا مكانتهما إلى الآن — وخاصة حافظ — وعُلِّمت فى جميع البلاد التى كانت تحت تأثير الحضارة الإسلامية[٢] . وأخرجت شيراز كذلك عالمين كبيرين للعالم الإسلامى : أحدهما قطب الدين المتوفى سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) الفلكى العظيم الذى بحث عن طرق حديثة فى ساحة العلم . وثانيهما المهندس المعمارى الكبير قوام الدين المتوفى سنة ٨٤٣ هـ (١٤٣٩ م) . وقد عد بعض العلماء جامع گوهر شاد الذى بناه قوام الدين

---

(١) يظهر من كلام الشيخ سعدى الشيرازى فى كتابه البستان إن أمير فارس أبا بكر بن سعد بن زنكى صالح المغول على مال فرجعوا عن غزو بلاده فهو يقول للأمير :

سكندر بديوار روئين وسنك بكرداز جهان راه يأجوج تنك

ترا سد يأجوج كفر اززراست نه روئين چو ديوار اسكندر ست

إن الإسكندر أقام سداً من الحديد دون يأجوج ومأجوج وأنت أقمت سداً من الذهب فى وجوه الكفار .

(٢) لا شك أن كتب الشيخ سعدى ولا سيما كلستان كانت أكثر رواجاً فى دور ادبيم من ديوان حافظ .

فى مدينة المشهد أعظم أثر لفن العمارة الإيرانية[1] .

إن الزعم بأن الحياة المدنية « لم تدم إلا فى البلاد التى نجت من هجمات المغول » زعم خاطىء . فُتحت بلاد متحضرة بأيدى قوم لم يتجاوزوا بعد درجة تقديم الإنسان قرباناً . وضُرب أحياناً جميع الناس بالسيوف حين الاستيلاء على المدن ، ولم ينج من الموت إلا الصناع الذين يحتاج إليهم الفاتحون على أن يكونوا أسرى ؛ فالذين شاهدوا أمثال هذه المشاهد المخيفة ، ظنوا بالطبع ، أن إصلاح تلك البلاد من جديد يحتاج إلى آلاف السنين . ونظر علماء أوربا المندفعون فى تيار هذه الآراء إلى الضربة التى أصابت آسيا وشرق أوربا من هجمات المغول على أنها أقوى بكثير من الضربة التى أصابت أوربا الجنوبية من هجرة الهون من قبل ، ولا يمكن معالجتها . والحقيقة أن نتيجة استيلاء المغول لم تكن سيئة إلى هذا الحد . وأول أسباب هذا أن الفاتحين لم يستوطنوا هذه البلاد . وقد اصطحب ملوك المغول مع قواتهم العسكرية التى لم تكن كبيرة العدد ، مستشارين مدنيين للاستعانة بهم فى الشؤون الإدارية والتعمير ؛ فإنا نرى فى تاريخ البلاد التى استولى عليها المغول : فى الصين ، وفى البلاد الإسلامية وفى روسيا بعد القرن الثالث عشر الميلادى ، استقراراً سياسياً لم يكن يوجد فيها من قبل . ولا شك فى أن ملوك المغول لم يعُنوا بالآداب المحلية ، ولم يبالوا بالعلوم الدينية بالطبع قبل اعتناقهم الإسلام . ولكنهم

(١) فى رحلات عبد الوهاب عزام الأولى كلمة عن هذا الجامع فى الكلام عن مدينة مشهد.

اجتهدوا لإنهاض حياة المدن وترقية الصناعة والتجارة ، مراعين فى ذلك منافعهم الخاصة . وقاموا بحماية العلوم ذات الخطورة العملية الخاصة كالطب والرياضة والهيئة . وقد أنشأ هولاكوا ، حفيد جنكيزخان وفاتح إيران ، للعالم الفلكى نصير الدين الطوسى ، مرصداً فى المراغة بآذربيجان مجهزاً بأدق الأجهزة المعروفة فى زمانه . ومع أن المغول كانوا متوحشين فى حكمهم لم يستلزم عهدهم « الانتقال من التبادل بالنقد إلى التبادل بالسلع ، ومن حياة المدينة إلى حياة القرية » كما حدث فى عهد الجرمان فى أوربا . ولم تدم جباية الضرائب عيناً (من الأشياء كالحبوب والأقمشة) مدة طويلة بعد موت جنكيزخان ؛ فمنذ عهد حفدته تعود المغول نظام النقد . وبدل نظام السكة الذهبية بنظام السكة الفضية ؛ فلما تم استقرار السكة الفضية ألغى سك الدراهم النحاسية رويداً رويداً . ولم يكتف المغول بإصلاح المدن المخربة فحسب بل أنشأوا مدناً جديدة (كمدينة السلطانية التى بنيت بين تبريز وطهران) وصارت تبريز وهى عاصمة آذربيجان مدينة كبيرة فى عهد المغول لا تقل عن مدن إيران القديمة اتساعاً وثروة . وأنشئت فى عهد ملوك المغول فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) مبان كبيرة تدل على نهضة فن العمارة الإيرانية من جديد . ومن هذه المبانى جامع ألجايتوخان (٧٠٤ — ٧١٦ هـ = ١٣٠٤ — ١٣١٦ م)[1] فى مدينة السلطانية ، وجامع

---

(١) ألجايتو بن أرغون بن أباقا بن هولاكوخان من نسل جنكيزخان ، وهو الثامن

ابنه أبي سعيد خان (٧١٦ — ٧٣٦ هـ = ١٣١٦ — ١٣٣٥ م) الذى بقصبة ورامين شرقى طهران .

إن الدولة المغولية جمعت البلاد المتحضرة من بلاد الشرق الأدنى والشرق الأقصى تحت سلطان أسرة واحدة وقوم واحد . وساعدت هذه الحال مساعدة عظيمة فى الشئون المدنية ، لافى تبادل التجارة فحسب ؛ فتجارة القوافل بين الشرق الأدنى والصين كانت معروفة من قبل ، ولكنها ازدهرت فيما بعد ازدهاراً لم يسبق له مثيل قط . وانتفع الأوربيون أيضاً بطرق القوافل هذه منذ أسرة « بولو »[١] من تجار البندقية . وظلت العلاقات وثيقة بين الدولة الإيرانية والدولة الصينية المغولية اللتين كانتا فى إدارة شعبتين منفصلتين من نسل جنكيزخان حتى انقسام الدولة إلى أقسام عديدة . وتقرب ملوك المغول بعد ذلك إلى الدول الأوربية أيضاً للعداوة المشتركة بينهم ضد سلاطين مصر من المماليك . وانتفع تجار أوربا ومبشروها

من ملوك الدولة الإيلخانية المتفرعة من الدولة الجنكيزية . وقد تسمى بعد تشرفه بالإسلام بغياث الدين محمد خدابنده .

(١) هو ماركو بولو الرحالة الشهير . ولد فى مدينة البندقية سنة ١٢٥٤ م ، ورحل مع أبيه نيقولا وعمه ماتيوس إلى بلاد الصين عن طريق بدخشان وصحراء غربى آسيا الوسطى . واستطاع أن ينال ثقة قبلاقا آن ملك المغول الذى كلفه بالقيام ببعض أعمال فى بلاد الصين . وعاد إلى أوربا سنة ١٢٩٥ م بثروات طائلة وأخبار عجيبة أدهش بها مواطنيه . وترك ماركو بولو كتاباً جليلا محتوياً على ما شاهده أثناء رحلاته الطويلة . وتوفى بالبندقية سنة ١٣٢٥ م .

بالطريق البحرى من الثغور الإيرانية إلى الهند والصين زيادة على طريق القوافل المارة بآسيا الوسطى . وبهذا يُفسَّر الرقى المدنى البارز عند الأوربيين فى القرن الثالث عشر الميلادى إلى حد ما . إلا أن التفوق المدنى كان فى تلك الأزمان للعالم الإسلامى وخاصة فى إيران . وإن كان فى تاريخ إيران عهدٌ وقف فيه الشعب الإيرانى فى الصف الأول من حضارة العالم فهو العهد المغولى . مع أن كثيراً من العلماء يذهبون إلى أن المغول لم يعملوا فى إيران غير تخريب الحضارة .

وكما يحتاج الرحالون المسلمون اليوم إلى الاستعانة بعلوم الأوربيين ليعرفوا ما يهمّهم ، كذلك كان رحّالوا أوربا فى ذلك العهد محتاجين إلى الرحّالين المسلمين . فقد ذكر ماركو بولو كثيراً من الأسماء الجغرافية كما ينطقها الفرس وهو يصف بلاد الصين التى رآها بعينيه . وظهر علماء الفلك من الصينيين فى إيران فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ولكن خدمات الفلكيين الإيرانيين فى الصين كانت أعظم . وقد كان علم الهيئة فيها تحت تأثير الإيرانيين التام ، واستطاعوا المحافظة على سيطرتهم هذه حتى بعد انقراض الحكم المغولى فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، ولم يتخلوا عنه إلا فى القرن السابع عشر ، فتركوه مرغمين لليسوعيين الذين قدموا من أوربا . ثم إن كتب الهيئة الفارسية ترجمت إلى اليونانية فى بوزنطة فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) أيضاً .

ورأى ملوك المغول فى إيران تأليف كتاب فى التاريخ[1] جامع للروايات التاريخية لجميع الأمم التى تدخل فى الأمبراطورية المغولية أو التى لها علاقة بالمغول من الصينيين إلى الإفرنج (سكان أوربا الغربية) . ونُفِّذ بعض هذا العمل وكلِّف القيام به رشيد الدين الذى كان يهوديًّا وأسلم ، وكان يعاونه رجل مغولى عالم بالروايات التاريخية المغولية ، واثنان من علماء الصين ، وراهب بوذى من كشمير وعدة من علماء إيران . وربما كان معهم راهب فرنسى أيضاً . حاول رشيد الدين تسجيل الروايات التاريخية كما سمعها من رواتها بدون تغيير ؛ فليس كتابه من هذه الوجهة تاريخاً علمياً بالمعنى المفهوم اليوم ، إلا أنه يشغل فى آداب العالم مكانة ممتازة من حيث اتساع دائرته . ولم نر اجتماع علماء جميع الأمم المتحضرة فى العالم القديم وجمعهم للروايات التاريخية المتصلة بالتاريخ العام فى كتاب واحد لا قبل ذلك الزمان ولا بعده . وقد كان علماء أوربا حتى فى القرن التاسع عشر يريدون أن يفهموا من التاريخ العام تاريخ أوربا الغربية فقط . ومن رواية أحد مساعدى

(١) هو كتاب « جامع التواريخ » لخواجه رشيد الدين فضل الله المقتول سنة ٧١٨ الهجرية ، وكان وزيراً للسلطان غياث الدين خدابنده محمد . وهو تاريخ بالفارسية مؤلف من مجلدات عدة . طبع منها المجلد الثانى المشتمل على تاريخ الدولة المغولية من عهد أوكتاى قاآن حتى تيمورلنك ، بليدن سنة ١٩١١ ضمن مجموعة جب التذكارية بتصحيح المستشرق ادكار بلوشيه ؛ وطبعت منه فى باريس سنة ١٨٤٤ قطعة خاصة بتاريخ هولاكوخان ، بتصحيح المستشرق كترمير ؛ ونشر المستشرق الألمانى كارل يوحنا الجزء الخاص بتاريخ الملك غازان ، فى مجموعة جب التذكارية عام ١٩٤٠ . وله نسخة عربية منها صورة فى دار الكتب الملكية المصرية .

رشيد الدين من كتَّاب المسلمين يتبين أنه منذ ابتداء القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) كان يُنظر إلى تاريخ العرب والفرس كأنه « أحد الأنهر التى تصب فى بحر تاريخ العالم العام » .

لم يقتصر تأثير إيران فى ساحات العلم والفن والأدب على البلاد التابعة لها سياسيًّا فحسب ، بل كانت علاقات وثيقة من قبل بين سواحل نهر إيديل (قولجا) وجيحون (آمودريا) ، وبهذه العلاقات يُفسَّر اعتناق بلغار إيديل للدين الإسلامى . مع أن شواطئ هذين النهرين لم تدخل فى حدود دولة واحدة إلا فى زمان المغول (فى حكم جوجى ابن جنگيزخان الأكبر) .

ولم تخل هذه الحالة من تأثير فى حياة مدينة بلغار الكبرى عاصمة البلغار القدماء ، ومدينة « سراى » التى أنشأها المغول . وقد تحقق فى الأزمان الأخيرة وجود أشعار فيهما أيضاً باللغة التركية متأثرة بالشعر الفارسى .

ابتدأ الدين الإسلامى ينتشر بين الشعوب التركية فى التركستان منذ القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) . وفى القرن الخامس الهجرى ألّف لخان كاشغر كتاب « قوتاد غو بيليك[1] » وهو أول كتاب إسلامى باللغة

---

(١) معناه علم السعادة أو علم جدير بالملوك . ألفه يوسف خاص حاجب البلاساغوفى باللغة التركية الشرقية سنة ٤٦٢ الهجرية برسم طفغاج بغراقراخان ملك كاشغر فى التركستان الشرقية . ومنه نسخة بالخط العربى فى دار الكتب المصرية كانت فريدة حتى ظهرت نسخة أخرى بالحروف العربية ، وهى النسخة التى وجدت بفرغانه بالتركستان ونقلت إلى مكتبة لنينجراد . كان أول ظهور هذا الكتاب سنة ١٨٩١ م حيث عثر المستشرق الروسى ف . رادلف=

التركية . وتُذكر فى هذا الكتاب قصص أخلاقية تشرح واجبات العمال والملوك . وتوجد مثل هذه القصص المكتوبة غالباً على صورة نصيحة الأب لأبنائه عند كل الأمم فى الزمان القديم والقرون الوسطى ؛ فمن هذا النوع كتاب « قابوسنامه » الذى كتب باللغة الفارسية فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، ألف فى صورة نصائح من أحد أمراء ساحل بحر الخزر لابنه[1] ، ونال شهرة واسعة وترجم إلى اللغة التركية أيضاً . ولم تفقد هذه الكتب الأخلاقية والنصائح قيمتها عند قرائها إلى اليوم فى إيران وفى كل بلاد ازدهر فيها الأدب قليلا أو كثيراً . وتذكر فى هذه الكتب ، بعد النصائح ، أمثلة مستخرجة من الحياة وأحداث تاريخية . ولكننا لا نجد فى قوتادغو بيليك غير مجازات ساذجة (مثّل شاعرنا العدل فى صورة أمير والدولة فى صورة وزير) وضروباً من نصائح جافة بعيدة عن الحياة . وقد كان تأثير الأدب الإسلامى والأدب الفارسى فى الأتراك عميقاً إلى درجة أن نسى الذين أسلموا منهم ماضيهم بالرغم من وجود كتابة لهم قبل الإسلام .

وتلقى الناس « قوتادغو بيليك » بالقبول رغم كل عيوبه المذكورة .

---

w. Radloff على نسخة مكتوبة بالحروف التركية الأيغورية بمكتبة فينا ونشرها بالزنكوغراف . ثم نشر متن الكتاب مطبوعاً بحروف سبكها خاصة بهذا الكتاب ، مع ترجمته الألمانية سنة ١٩٠٠ م .

ثم جمع المجمع اللغوى التركى تلك النسخ الثلاث باستخراج صورها الفوتوغرافية ، ودرسها مع مقارنة بعضها ببعض ، وأصلح ما وقع من الأغلاط فى ترجمة رادلف ، بعد جهد شاق فى نحو ثمانية أعوام . ثم نشر صور النسخ الثلاثة الزنكوغرافية فى ثلاث مجلدات سنة ١٩٤٢ م .

(١) ألفه كيكاوس بن اسكندر بن قابوس من الدولة الزيارية .

وقد نقشت أبيات منه على زهرية خزفية مصنوعة فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) وجدت فى مدينة « سرايجك » على مصب نهر أورال . ولكن يبدو أنه لم يقلده أحد . وأخذ دعاة الإسلام منذ القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) يؤلفون كتباً دينية منظومة أو منثورة باللغة التركية لتعزيز الدين الإسلامى فى الأتراك ، فأشعار الشيخ أحمد يسوى[١] المؤلفة على هذا الأسلوب لا تزال تتخذ أنموذجاً لشعراء العامة إلى هذا اليوم . وأما الطبقة المثقفة فقد اكتفت بالأدب الفارسى الذى نال رعاية الخانات أيضاً زمناً طويلاً . وأما السلاجقة ، فاتحو إيران وآسيا الصغرى الذين كانوا أقل حضارة من القراخانيين فاتحى التركستان حين دخولهم فى الإسلام ، فقد كان انغماسهم فى الحضارة العربية والفارسية أسهل . وأغلب الظن أنه لم تكن لهم كتابة وتقاليد أدبية .

إن انتصار المغول دعا إلى اعتزاز الأقوام الرحل بتقاليدهم ونظم حياتهم ولغاتهم . وكان أساس معيشة الرحل واحداً فى كل البلاد على اختلاف اللغة المغولية عن التركية وكون المغول أقل حضارة من الأتراك . ثم كان المغول الرحل السائرون إلى الغرب أقل من الترك عدداً ؛ فمن هنا كان

---

(١) ولد ببلدة يسى فى التركستان ، وتلقى العلوم الدينية والتصوف فى بخارا التى كانت أكبر مركز دينى فيما وراء النهر فى ذلك العهد ؛ ثم عاد إلى بلدته يسى وأنشأ طريقته المعروفة بالطريقة اليسوية . وقد انتشرت هذه الطريقة فى البلاد التى يسكنها الأتراك من آسيا الوسطى وشرق أوربا . وله ديوان باللغة التركية الشرقية يسمى ديوان الحكمة ، يجمع آراءه الصوفية ، ولا يزال يقرأ بإجلال فى البلاد المذكورة . وتوفى الشيخ أحمد يسوى سنة ٥٦٢ هـ .

نسيانهم للغتهم فى البلاد التى يكثر فيها الرحل كتركستان و« آلتون أوردا» واتخاذهم التركية لغة لهم . وأما المغول الذين كانوا فى إيران فقد استطاعوا المحافظة على لغتهم مدة أطول . وقد حاول المغول فيها أن يبدعوا لهم أدباً باللغة المغولية حتى بعد اعتناقهم الإسلام ؛ فترجم كتاب كليلة ودمنة ، وهو مجموعة قصص هندية، من الفارسية إلى المغولية ، ولكن تأثير هذا الأدب فى حياة المغول ولغتهم الأدبية بعد هذا العهد أو عدم تأثيره مسألة لا تزال موضع النظر . وهناك من يظن أن بعض القصص المتعلقة بـ « باغاتير جانغار » (بهادر جهانگير بالفارسية) البطل الأسطورى المعروف اليوم عند المغول والقلموق قد نشأت فى إيران . وقد حافظ فاتحو المغول على لغتهم فى أفغانستان إلى اليوم ، ولكن ليس لهم أدب شعبى .

لم يكن النشاط الذى بذله ملوك المغول لرفع شأن شعبهم فى إيران مفيداً لهم بل أفاد شعور الأتراك القومى ؛ فإن الأتراك هم الذين استفادوا من الأوصاف الواضحة التى ذكرها رشيد الدين فى وصفه لحياة الرحل فى كلامه على جنكيزخان وأسلافه والقبائل المغولية والتركية الأخرى ولم ينتفع بها المغول . وقد ترجم هذا القسم إلى التركية مرات عديدة . وترجم أيضاً للقيصر بوريس غودونف فى روسيا . و بتأثير رشيد الدين صاغ الترك الروايات الشعبية الأسطورية الخاصة بجدهم أوغوزخان — جد الغزية — فى قالب أدبى. وأخذ أحد مؤرخى آسيا الصغرى الذى ألف قصة أوغوزخان فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ، الكلمات الحكمية التى نسبها رشيد الدين فى

كتابه إلى جنگيزخان ووضع أوغوزخان مكان جنگيزخان بدون أى تحرج[١]. ولا شك أن للأدب الفارسى تأثيراً فى إفراغ الروايات القومية فى قالب أدبى . وآية ذلك كلمة « أوغوز نامه » ؛ فإن كلمة « نامه » تطلق فى الفارسية على الكتابة والكتاب . و « أوغوز نامه » اسم للمناقب المتعلقة بالأتراك الغز ، وكان يقصها شعراء الغز الشعبيون الذين يسمون « أوزان » .

ولا شك فى أنه يمكن أن يقال إن أعمال الحضارة التى بدأها العرب والفرس ، قد أدامها الترك بقواهم الناشئة ؛ فأمدوا الحضارة الإسلامية بحياة جديدة . والحق أن الأتراك أبدعوا لهم لغة جديدة أدبية فى التركستان وفى آسيا الصغرى — وإن كانت على غرار غيرهم — ؛ ففى آسيا الصغرى أخذت قصص البطل العربى السيد بطال الذى استشهد فى أيام الأمويين وجُعل مقاتلا تركياً . وفى الكتاب المؤلف عن « قورقود » أبى الأتراك وشاعرهم الشعبى فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ، موضوعات أخذت من غيرهم ثم تُرِّكت بالصورة عينها . وجلال الدين الرومى وهو أحد شعراء الأدب الفارسى الكبار فى القرن السابع ، ومؤسس الطريقة المولوية و « أحد عظماء متصوفى الإسلام » على رأى بعض العلماء[٢] ، وكتابه

(١) يقصد بارتولد بهذا كتاب « سلجو قنامه » الذى ألفه يازيجى أوغلى على باللغة التركية فى عصر السلطان مراد الثانى . انظر مقالتنا فى الأدب التركى فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) فى دائرة المعارف الإسلامية .

محمد فؤاد كوپريلى

(٢) إن كون جلال الدين من عظماء متصوفى الإسلام ليس رأياً لبعض العلماء ولكنه مسلم عند كل من يعرف تاريخ التصوف الإسلامى .

المثنوى مرتبطان بآسيا الصغرى أيضاً . وقد أخذ أتباع هذه الطريقة منذ نشأتها يكتبون باللغة التركية واللغة الفارسية . ووجدت «الدرويشية» والشعر الصوفى فى موطن الترك بآسيا الصغرى بيئة أصلح لهما من إيران ؛ فسارا فيها سيراً أكثر استقلالاً ونضوجاً . وفى القرن السابع أيضاً اتُّخِذت اللغة التركية لغة رسمية للدولة فى آسيا الصغرى (١) ، ونشأت بهذه الصورة لغة أدبية مصطنعة ولكنها جميلة ، محتوية على كثير من الكلمات العربية والفارسية ، ومحافظة على الصيغ الصرفية التركية الخالصة . وكانت هذه اللغة تخالف لغة الشعب مخالفة تامة فلا يفهمها . وكما ظهر تأثير الأدب الإيرانى ظهر تأثير فن العمارة الإيرانية أيضاً ؛ فأنشئت فى قونية و بروسة مبان متأثرة بالأساليب الإيرانية ، غير أنها لم تكن مقلدة تقليداً محضاً ؛ فتبدو فى المبانى المنشأة فى قونية مع الأثر الإيرانى آثار للتقاليد المحلية السابقة للإسلام .

كانت آسيا الصغرى خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين (الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين) بأيدى شعبة من السلاجقة الذين حكموا فى إيران والعراق . وفى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى خضع سلاجقة آسيا الصغرى لملوك المغول (الايلخانية) الحاكمين فى إيران ، وقد انقطعت العلاقات بين إيران والتركستان عدة قرون بعد إنهيار الدولة السامانية فى نهاية القرن الرابع الهجرى (نهاية القرن العاشر الميلادى) ؛ ففى

---

(١) الدولة العثمانية قامت سنة ٧٠٠ هـ ولم تتخذ التركية قبل قيامها لغة دولة إلا مدة قصيرة حينما استولى .

القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) وفق السلطان محمد ملك خوارزم ، كما رأينا سابقاً ، لجمع التركستان و إيران فى إدارة واحدة . إلا أن دولته كانت قصيرة العمر ؛ فلم تؤثر فى تقدم الحضارة . وفى عهد خلفاء جنكيزخان تألفت فى التركستان دولة مغولية مستقلة ، فتحول الخلاف بين خانات التركستان وخانات إيران إلى عداوة . ورغم ذلك نشأ فى التركستان فى هذا العهد أدب تركى متأثر بالأدب الفارسى . وكانت اللغة التركية تعد اللغة الثقافية الثالثة للعالم الاسلامى منذ القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) . قال جمال الدين القَرَشى الذى شرع فى تأليف كتابه فى بداية القرن الثامن الهجرى (بداية الرابع عشر الميلادى) ، إنه كان للشيخ حسام الدين عاصمى وهو من معاصريه ، مؤلفات عدة باللغات الثلاث ، و إن أشعاره العربية ممتازة بالفصاحة ، وأشعاره الفارسية «بالملاحة» ، وأشعاره التركية بالصحة ؛ فعلى هذا يبدو تفوق الأدب العربى فى الفصاحة كما كان فى عهد المأمون ، وتفوق الأدب الفارسى فى عمق معناه . وأما الأدب التركى الذى أخذ يتكون حديثاً ، فكان تابعاً من كلتا الجهتين للأدب العربى والأدب الفارسى وجاذباً للقلوب ببساطته وصدقه .

إن نهاية القرن الثامن والقرن التاسع (نهاية القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر) هو عهد التركستان اللألاء الذى لم تشاهد مثله قط . وقد اتحدت التركستان و إيران من جديد فى حكم تيمور وأسرته . وذهبت جيوش تيمور إلى مسافات شاسعة ؛ فنى الغرب إلى بروسه وأزمير ، وفى الجنوب

الشرق إلى دهلى ، وفى الشمال إلى إيرتيش[١] . ولم يكن تيمور أقل من جنكيز قسوة وسفكا للدماء فى البلاد التى استولى عليها ، ولكن كان نشاطه فى الإصلاح عظيما كنشاطه فى التخريب . ضُربت أعناق عشرات الآلاف من الناس فى المدن الكبرى ، وأقيمت أبراج من رؤوس الإنسان، وعوقب آلاف من الناس بعقوبات قاسية . وفى الوقت نفسه أنشئت قنوات مياه كبيرة هائلة ومبان عظيمة . وقد اهتم تيمور اهتماماً خاصاً بإصلاح سمرقند عاصمة ملكه ، وأحضر إليها ، بالقوة أحياناً ، كثيراً من العلماء والصناع من البلاد التى خربها . وأسمى تيمور القرى التى أنشأها حول سمرقند بأسماء المدن الكبيرة كدمشق ومصر وشيراز وسلطانية ، قاصداً بذلك ضمان تفوق عاصمته على المدن الأخرى . أنشئت المبانى على الطراز الإيرانى ، إلا أنها فاقت نماذجها فى ضخامتها . وكان تيمور يدل على الطريق فى هذا الشأن أيضا ، بل يحيّر المهندسين المعماريين أحياناً بآرائه الجديدة التى يعجز عنها الفن . ومعظم المبانى الباقية من عهد تيمور خربة اليوم . وقد كان بعضها فى حاجة إلى التعمير منذ القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) . وكان جامع سمرقند المسمى « مسجد بيبى خانم » ، وهو أكبر تلك المبانى ، قد بلغ حالة مخيفة فى حياة تيمور ، إذ كانت قطع الآجر المتساقطة تزعج الجماعة أثناء إقامة الجمعة .

وأما فى زمن أبناء تيمور فقد تقدم الإصلاح بقوة شديدة بالقياس إلى

---

(١) إقليم فى سيبريا يمر به نهر ايرتيش .

التخريب ، وفقدت المقاصد الحربية قوتها القديمة ، بل تقلصت حدود الدولة قليلا قليلا .

استمرت أعمال الإصلاح فى المدن الكبرى وخاصة فى سمرقند وهراة بنشاط عظيم ؛ فأخذ العلماء والشعراء والصناع يقدمون إلى قصر الملك راغبين وقد ترك حكم ألوغ بك حفيد تيمور الذى امتد أربعين عاماً (٨١٢ — ٨٥٣ هـ — ١٤٠٩ — ١٤٤٩ م) آثاراً كثيرة جداً فى سمرقند . ومنها المدرسة التى فى بخارى المنقوش على جدارها « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ، والمدرسة التى بسمرقند . وكان قاضى زاده الرومى يقوم بتدريس علم الهيئة فى هذه المدرسة ، علاوة على العلوم الدينية التى تدرس فيها . وأما المرصد الذى أنشأه ألوغ بك فقد أدّى على قصر مدته أعمالا جليلة . وكان علماء إيران وطلبتهم الذين أحضروا من إيران يدرسون فيه حركات الكواكب ، وألوغ بك نفسه يشتغل معهم . وباسمه نُظمت جداول الهيئة وفهرس الكواكب[1] . وهذا الكتاب هو آخر كلمة الهيئة فى القرون الوسطى ، وآخر مرحلة بلغها العلم قبل اختراع المنظار (التلسكوب) . ولألوغ بك مكانة ممتازة فى تاريخ العالم الإسلامى باعتباره ملكا عالماً . ولم يجد معاصروه شبيهاً له غير الإسكندر تلميذ أرسطو المتوّج . وكان ألوغ بك متشبعاً بفكرة رقى الإنسانية العامة أكثر من الفروق الدينية والقومية . وقد أبدى فى مقدمة جداول الهيئة رأياً جديراً بكثير من الاهتمام وإن كان

(١) يعنى الزيج الذى ألف بأمر ألوغ بك وسمى الزيج الجديد السلطانى .

خطأ ؛ فهو يرى « أن النتائج التى تنتجها العلوم المثبتة تحافظ على قيمتها دائماً ، وليس لتغير الأزمان والقوميات واللغات تأثير فيها » . والحقيقة أن ليس لكتب علماء اليونان والرومان اليوم غير خطورة تاريخية ، بينما تحافظ كتب أدباء اليونان والرومان على جدتها وجمالها حتى مع ترجمتها إلى لغات أقوام أخرى فى أزمان مختلفة ؛ فرأى ألوغ بك طبيعى جداً للحضارة الإسلامية التى أخذت فلسفة اليونان وعلومهم ولكنها ظلت جاهلة بأدبهم .

ومن الطلبة الذين درسوا مع ألوغ بك فى قصره على قوشجى ، وكان ألوغ بك يسميه ابنه . كان المرصد خرباً فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) . وأما فى القرن العشرين الميلادى فلم يمكن الحصول على أطلاله إلا بالحفر. انتقل قوشجى من التركستان إلى إيران ومنها إلى تركيا وخرّج فيها كثيراً من الطلبة .

وأزهى عهد هراة هو أيام حكم السلطان حسين بَيقرا (٨٧٤ — ٩١٢ هـ = ١٤٦٩ — ١٥٠٦ م) وقد ظن أهل آسيا الوسطى أنه لا توجد مدينة على وجه الأرض يمكن مقارنتها بهراة . ولم تنشأ هذه العقيدة من سعتها بل من نظرهم إلى مستوى الحياة المدنية فيها ، وإلا فإن هراة كانت أصغر من سمرقند . وكان عهد السلطان حسين زمناً غريباً ، اجتهد فيه كل الناس لأتقان ما يعملونه على أكمل وجه . وكان على شير [1] يقوم بحماية

(١) الأمير على شيرنوائى أحد حماة العلم والأدب فى عهد السلطان حسين بيقرا وأعظم طلائع الأدب التركى بلغة جغتاى . وآثاره فى التأليف ورعاية المؤلفين ، وفى تشييد الأبنية العامة والمدارس وإجراء الصدقات مضرب المثل . توفى سنة ٩٠٦ هـ .

العلم والفن ، فاسم الجامى وهو أحد عظماء شعراء إيران[١] واسم ميرخوند مؤلف التاريخ العام المشهور جداً فى إيران اليوم[٢] متصلان اتصالاً وثيقاً باسمى السلطان حسين ونوائى .

وكان تحت سلطان ألوغ بك إمارة بخارى الحالية و بلاد كاشغر وولاية سمرقند وفرغانة وناحية واسعة من مقاطعة سيحون (سيردريا) . وأما خراسان وأفغانستان وقسم من خوارزم فكانت تحت حكم السلطان حسين بيقرا . ولكن لم يقتصر تأثير الحضارة الإيرانية على حدود هاتين الدولتين ، بل قلد جيرانهم الشرقيون ما قام به تيمور وأبناؤه من النشاط المعمارى . ولعل الجامع الذى فى شمال غربى مدينة غولجه[٣] والذى يقال إنه بناء تغلق تيمور[٤] المتوفى سنة ٧٦٢ هـ (فى رأس سنة ١٣٦٠ م) يرجع إلى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) وقد بنى فى القرن التاسع الهجرى

(١) الشيخ عبد الرحمن الجامى أحد كبار العلماء والشعراء فى القرن التاسع الهجرى ، له كتب كثيرة عربية وفارسية فى اللغة والتفسير ، وله منظومات كثيرة بالفارسية توفى سنة ٨٩٨ هـ .

(٢) كتاب روضة الصفاء فى سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء ، ولابنه خوندمير كتاب فى التاريخ قيم يسمى حبيب السير فى أخبار أفراد البشر .

(٣) عاصمة إقليم غولجه أو إيلى بمقاطعة جونغاريا بشمال غربى الصين . عدد سكانها نحو اثنى عشر ألفاً معظمهم من الأتراك المسلمين وبها عدة مساجد بنت الحكومة الصينية بعضها ، وبعض معابد للوثنيين وكنيستان .

(٤) من أحفاد جغتاى بن جنكيزخان ، حكم فى بلاد المغول ومقاطعة كاشغر فى أواسط القرن الثامن الهجرى . وكان دخوله فى الإسلام سنة ٧٥٤ مختاراً سبباً لإسلام كثير من المغول وقبائل الجغتاى التى لم تكن أسلمت بعد . ومنذ هذا التاريخ أصبح الحكم فى مقاطعة كاشغر فى يد المسلمين .

« كروانسراى طاش رباط[١] » على إحدى الطرق الأصلية الموصلة إلى كاشغر فى القسم الجنوبى من مقاطعة « يدى صو » Semirece ، وأما المئذنة المشهورة بـ« بوران » التى ببلدة « طوقماق » فى مقاطعة « يدى صو » فلم يعلم متى بنيت ، فلا تؤثر كتابة عنها ولا عليها نقوش.

كانت لغة تيمور وأسرته الأصلية هى اللغة التركية . وإذا نظرنا إلى أعمال تيمور وأبنائه لم نجد فيهم إحساسًا بالقومية التركية . ولكن إخوانهم فى القومية انتفعوا بعظمتهم وسلطانهم فى رفع شأن اللغة التركية وأدبها . ظل الشعر التركى مقلداً ، إلا أن شعراء الترك لم يكونوا يرون كتبهم أقل من نماذجها الفارسية . وقد عُدّ الشعر التركى جديراً بقوة ملوك الترك وعظمتهم . قال الشاعر السكاكى لألوغ بك : « سيدور الفلك كثيراً حتى ينجب شاعراً تركيًا مثلى وملكا مثلك » . وقد كسف على شير نوائى جميع من سبقوه من الشعراء . كان نوائى يكتب بالفارسية أيضًا ، إلا أنه ذاع صيته شاعراً تركيًا ، فصارت مؤلفاته كتبًا تقليدية (كلاسيك) لجميع الأتراك فى الأقاليم الواسعة من مدينة « توبول » إلى استانبول . كان نوائى تركيًا ومحبًا لوطنه . وقد حاول أن يثبت أن اللغة التركية ليست بأقل من الفارسية[٢] ولهذه الغاية أخذ موضوعات الأدب الإيرانى وكتب فيها

---

(١) كروانسراى أى منزل القافلة ، بناء يبنى على الطريق لإيواء المسافرين ، وكان فى إيران وآسيا الوسطى كثير من هذه الأبنية .

(٢) كتب نوائى فى هذا كتاب محاكمة اللغتين وبين فيه مزايا التركية وقارنها بالفارسية .

مثنويات بالتركية . وهكذا لم يستطع إنقاذ الأدب التركى من التقليد حتى شاعره التقليدى . ومع ذلك فليست مؤلفاته صوراً من الأدب الإيرانى فقط ؛ فلغته بالرغم من أنها مصطنعة ، أبسط من نماذجها كثيراً وأوضح منها وأقرب إلى الحقيقة . ويتجلى فى كتبه الإبداع الخاص بأدب العهد التيمورى . وقد رأى الشاعر السكون معادلا للموت .

وتنطبق الأقوال المذكورة على مؤلفات بابر أيضاً انطباقاً تامًّا . وقد اضطر الميرزا بابر المولود سنة ٨٨٧ ﻫ (١٤٨٢ م) والمتوفى سنة ٩٣٧ ﻫ (١٥٣٠ م) إلى مغادرة تركستان تحت ضغط الأزبك وأن يؤسس دولة جديدة فى الهند . وعرف لبابر منذ القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) سيرته المسماة « بابرنامه » وهو كتاب النثر التركى التقليدى بحق ، زيادة على كتبه المنظومة والمنثورة . وقد ألف بابر كتابه هذا بلغة تركية سهلة واضحة ، مع وقوفه التام على الثقافة الإسلامية والأدب الإيرانى ، وتقدير القراء لأسلوبه هذا دليل على ما فيه من ذوق أدبى سليم ومتين . وتزيد خطورة هذا الأسلوب إذا فكرنا فى وصف دولتشاه السمرقندى وهو أحد كتاب الأدب الإيرانى فى ذلك العهد لأسلوب رودكى السهل بأنه أسلوب ردىء ، ووصف الكتاب العثمانيين اللغة التركية السهلة التى كتبها أجدادهم بأنها لغة « تركية غليظة » . وقد كان تيمور يطلب إلى المؤلفين أن يؤلفوا كتبهم بحيث يحبها المثقفون ويفهمها غير المثقفين . وأظن أن هذه الرغبة لم تكن رغبة تيمور وحده بل رغبة جمهرة عظيمة فى

عهد التيموريين . إذ كانت الأنظار لم تتحول بعد إلى الخلف بل كانت متجهة إلى الأمام ؛ فبدل تقليد الآباء على غير هدى وضع بابر هذا الأصل الواضح : « إن كان أبوك قد وضع قانونًا فاحْفظه ، و إن كان هذا القانون سيئًا فاعمل أحسن منه »[1] .

(١) هو ظهير الدين محمد بابر شاه من أحفاد تيمورلنك ومؤسس الدولة التيمورية فى الهند ، وأحد أعاجيب الزمان همة وطموحاً وصبراً على غير الزمان . فقد أمارة صغيرة فيما وراء النهر ، فأبت همته إلا أن تختط لنفسه مملكة فى أفغانستان اتسعت من بعد حتى شملت البنجاب وبعض أقاليم الهند وتركت للتاريخ دولة من أعظم الدول التى عرفها . وله سيرة كتبها بنفسه سجل فيها الغير التى مرت به منذ صباه وهى من أمتع السير وأروعها .

الفصل السادس

العالم الإسلامى بعد القرن التاسع

إن القرنين التاسع والعاشر الهجريين (الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين) هما عهد وفِّق فيه السلاح الاسلامى أعظم التوفيقات . فقد وُضع أساس دولتين عظيمتين فى هذا العهد، غير الدولة العثمانية التى أسقطت بوزنطة وهددت فينا . إحدى هاتين الدولتين هى الدولة الصفوية والأخرى هى الدولة المغولية العظمى التى تأسست بالهند ، أى دولة أسرة بابر . ومع ذلك قد بدأت مصائب العالم الاسلامى فى هذا القرن أيضاً . إذ أن التفوق المدنى الذى ظل فى الشرق الأدنى زهاء ألف عام قد بلغ نهايته فى هذا العصر وانتقل التفوق المدنى إلى الأوربيين الغربيين .

وتدل الحوادث التى ذكرناها سابقاً على أن هذه الحَال لا يمكن تفسيرها بأنها ناشئة عن شيخوخة الحضارة التى عاشت ألف عام ؛ فقد قام العرب والايرانيون بعمل ما استطاعوا عمله خير قيام . ولا يجوز مطلقاً أن يقال إن الأتراك لم يبدعوا شيئاً . وقديماً اشتكى كتّاب اليونان والرومان قائلين : « شاخت الدنيا ونفدت قوة الإنبات فى الأرض ، وجَفَّت الينابيع ، ولا يزيد الناس ، فلا ينشأ جندى ولا ملاح ولا زارع » . ولكنا لا نرى فى الأدب الإسلامى فى القرن التاسع الهجرى

(الخامس عشر) مثل هذه الشكايات . والحق أنها ليس لها سبب ، لأن العالم الإسلامى لم يفقد بعدُ قدرته على الحضارة . ومع ذلك لم يقدر على مزاحمة عالم المسيحية . وقد تقدمت حياة المدن والتجارة والصناعة فى أوربا فى هذا العهد تقدماً سريعاً جداً . ولم تتحول المنازعات بين الطبقات والدول إلى شكل مشوّش كما حدث فى الشرق الأدنى من هجمات البرابرة . وفى القرن التاسع أيضاً انتصرت الصناعات التى تكفّلت بتفوق أوربا على جميع العالم .

ويحتمل أن البارود كان معروفاً فى الشرق الأقصى ، وربما انتُفِع به فى الحروب أيضاً . ولكن لم تخترع الأسلحة النارية إلا فى أوربا . وعرف اختراع الأوربيين هذا للدول الشرقية بعد مدة قصيرة ، حتى إن الترك استفادوا منه فى فتح استانبول فائدة كبيرة . وقد كان العثمانيون فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر) لا يتأخرون عن الأوربيين فى شىء من فنون الحرب . ولكن هذه المخترعات الأوربية دخلت فى الشعوب الإسلامية البعيدة عنها ببطء شديد . ولم تكن سيبريا ، وهى أبعد نقطة فى العالم الإسلامى شمالاً ، تعرف الأسلحة النارية حتى فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، وقد ساعدت هذه الحال مساعدة كبيرة فى انتصار الروس . ولإنشاء السفن خطورة خاصة فى أوربا . فبعد استكشاف رأس الرجاء الصالح أخذت سفن أوربا تمخر عباب الماء فى بحر الهند . ولم يقدر المسلمون على مقاومتهم فاضطروا إلى ترك تجارة الهند والصين البحرية .

لم يرض العالم الإسلامى بهذه الحال فى الوهلة الأولى . فنى النصف الأول من القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) أدرك الترك درجة تفوق الأوربيين فى البحر ، ورأوا وجوب إنشاء أسطول كأسطول الأوربيين ، كما قلد الأوربيون العرب فى هـذا سابقاً . ومما يلفت النظر كثيراً أن الربّان سمى فى تركيا قپوداناً (قپودان پاشا) وهو اسم مستعار من الأوربيين فى حين أن الأوربيين استعملوا لقواد الأسطول كلمة « أميرال » المأخوذة من كلمة أمير الماء العربية . وفّق الترك مرّة واحدة عام ١٥٣٨ لإرسال أسطول إلى شواطئ الهند ، إلا أن هـذا المشروع لم ينتج ولم يتكرر . وقد انتقلت المكانة الأولى فى أوربا من الطرق البرية إلى البحرية بتقدّم الملاحة واستكشاف أمريكا . ولم تقف تجارة القوافل التى كانت ترفع شأن المدن الكبيرة أمثال سمرقند وهراة وقوفاً تاماً ولكنها فقدت خطورتها القديمة .

وفى القرن السادس عشر أيضاً خلق الفن (تكنيك) الأوربى الطباعة إحدى الوسائل العظيمة للحضارة . وقد كان فن الطباعة معروفاً فى الصين من زمن بعيد ؛ ولعل الأوربيين تعلموه منها ، وانتقلت الطباعة من الصين إلى البلاد الأخرى فى الشرق الأقصى . وسبق أهلُ « كوريا » الصينيين والأوربيين معاً فى اختراع حروف معدنية متحركة . وكان فن طبع الكتب معروفاً فى إيران كما كان معروفاً فى الصين ؛ فنى تاريخ رشيد الدين معلومات مفصلة عنه . ومع ذلك لم ينتفع به عالم الشرق الأقصى

مثل ما انتفع به الأوربيون . وأما المسلمون فلم يقدروا على الاستفادة منه مطلقاً . وقد طبع كثير من الكتب الأدبية والعلمية أيضاً ، بالرغم من قلة عدد المتعلمين فى أوربا ، نسبياً فى القرن الخامس عشر . وأخذ الأوربيون فى القرن السادس عشر يطبعون الكتب المؤلفة باللغات الشرقية كذلك لأغراض علمية . وأما فى العالم الإسلامى فلم تنتشر الطباعة إلا فى القرن الثامن عشر ، وكان أول ظهورها فى تركيا . أخذ المسلمون الأسلحة النارية من الأوربيين بدون أدنى تردد ، ولكن وجب استفتاء علماء الدين فى قبول فن الطباعة وهى إحدى مخترعات الكفار . إذ كان يمكن أن تحدث الاستفادة من الكتب المطبوعة ،تغيراً كبيراً فى عالم «المدارس» الدينية[١] .

تدل المقارنة بين الصين وأوربا الغربية على أن الصناعة وحدها ليست سبباً كافياً لازدهار الحياة الاجتماعية . وقد اتضح أنه يمكن معرفة صناعة البارود ولا تتكون العسكرية القوية ، ويمكن معرفة بيت الأبرة (البوصلة) ولا تتقدم الملاحة البحرية ، ويمكن معرفة فن الطباعة ولا يتكون الرأى العام . فلو لم يكن فى أوربا ذلك الرقى الاقتصادى والمدنى الذى له علاقة بعصر النهضة والذى أنزل الحضارة الإسلامية إلى الدرجة الثانية ، لما أنتجت الطباعة هذه النتائج العظيمة . وقد اضطر المسلمون رويداً رويداً إلى التخلى للأوربيين عن الأستاذية حتى فى تعلم اللغات الشرقية وآدابها وتاريخ الشرق . ولما زحم علماء الهيئة الأوربيون المسلمين فى بلاد الصين

(١) كلمة « مدرسة » كانت تطلق فى تركيا وإيران على المعاهد الدينية فقط .

وأخرجوهم منها فى القرن السابع عشر كثرت المخطوطات الشرقية فى مكتبات أوربا إلى درجة أن استطاع د. هربلو d. Herbelot أن يؤلف دائرة معارف خاصة بالعالم الإسلامى بدون أن يذهب إلى الشرق .

ولا ينبغى أن يُظن أن العالم الإسلامى قد مُنِى بعد القرن التاسع الهجرى بانحطاط ، وأنه لم يستطع أن يقدم للحضارة شيئاً جديداً ؛ فتركيا لم تكتف بشهرتها العسكرية فى القرنين العاشر والحادى عشر الهجريين بل صارت استانبول إحدى مراكز الحضارة الكبرى للعالم الإسلامى . فلا تفوقها ، فى كثرة المخطوطات الفارسية المحفوظة فى مكتباتها إلا لندن ولنينجراد من المدن الأوربية . على أن خدمة الترك لم تقف عند حد التعريف بالتراث الباقى عن الماضى ، بل أبرزوا أسلوباً جديداً فى فن العمارة يخالف العمارة الإيرانية ، فالمبانى التى بناها المعمار التركى الكبير سنان — وهو رومى الأصل — ليست مطلقاً بأقل من آثار عهد النهضة المعمارية فى أوربا . ويَعُدّ سنان جامع سليمية الذى بأدرنة من أعظم آثاره .

وقد عاش العالم التركى المشهور والمعروف بكاتب چلبى أو حاجى خليفة فى القرن الحادى عشر (السابع عشر الميلادى) . ومن مؤلفاته كتابه العظيم فى فن الكتب الذى يشتمل على جميع شعب العلوم والآداب . وله كتاب آخر فى الجغرافيا[١] وهذا الكتاب محاولة جمعت معلومات الأوربيين والمسلمين فى الجغرافيا معاً . ولم تكن أوربا قد قامت بمثل هـذه التجربة إلى ذلك

---

(١) كتاب جهانُما ، وقد طبع فى استامبول سنة ١١٤٥ هـ .

الوقت . وفى القرن الحادى عشر نفسه قام أوليا چلبى برحلة كبيرة وألف كتابه المشهور . وأن هذا الكتاب بالرغم مما به من المعلومات الملفقة ، يترك كتب العرب فى المؤخرة من حيث كثرة ما يحوى من المعلومات ووسعتها(١) .

وكانت إيران فى أوائل القرن الحادى عشر الهجرى يحكمها الشاه عباس الكبير (٩٩٦ — ١٠٣٨هـ = ١٥٨٧ — ١٦٢٨ م) . وهذا العهد الطويل عهد زاه جداً فى تاريخ إيران ، بقيت منه آثار معمارية عظيمة فى أصفهان وكانت العاصمة وفى مدن أخرى . وقد قارن سياح إيطالى فى زمن الشاه عباس « ميدان شاه عباس » وحديقة « چهار باغ » بأكبر شوارع وميادين المدن المسيحية فى ذلك العصر . ويزاد على هذا أن الأسرة القاجارية نفسها ، وهى آخرة الأسر ، اجتهدت فى تقدم حياة المدن غير مكتفية بتقوية نفوذ الحكومة ، وعمَّرت مدينة تبريز فصارت مدينة عظيمة بعد أن خربت تماماً فى القرن الثامن عشر ، وذلك زيادة على مدينة طهران العاصمة .

وكانت الدولة المغولية فى الهنـد لا تزال إمبراطورية قوية فى القرن السابع عشر . وتشكل فن العمارة الإيرانية هنا بشكل جديد متأثر بالهند ؛ والآثار المعمارية التى خلفتها الدولة المغولية من ذلك العهد عظيمة ولو قيست

---

(١) يترجم الأستاذ حزه الجزء الذى يخص مصر من هذا الكتاب إلى اللغة العربية لوزارة المعارف المصرية .

بآثار الأوربيين فى العهد نفسه[1] . وكانت ثروتهم تزيد كثيراً على ثروة فرنسا وهى أغنى دول أوربا فى ذلك العصر .

إن البربرية لم تستطع الانتصار على الحضارة انتصاراً تامًا حتى فى التركستان التى استولى عليها الأزبك البرابرة فى القرن العاشر (القرن السادس عشر) . وقد استمرت تقاليد تيمور و بنيه فى سمرقند حتى فى القرن الحادى عشر الهجرى ، نستدل على ذلك بمدرستى « شيردار » و « تيلّا قارى » استدلالاً بيّنًا . وكانت ببخارى مكتبات غنيـة جـداً فى تلك الأزمان ، ذكر المؤرخون أنه كان بها كتب فى فلسفة الرواقيين والمشائين . وقد أنزل الأزبك ضربة قاضية بالتجارة وحياة المدن فى خوارزم . ولكن تقدمت الأعمال الزراعية إلى حد ما بفتح قنوات كبيرة جديدة ، وتم فى فرغانة أيام حكم خانات خوقند فى القرن الثالث عشر الهجرى (التاسع عشر الميـلادى) أعمال رىّ عظيمة وأنشئت مدن جديدة . وكما أن فن العمارة تأثر بالهند فى الدولة المغولية الـكبرى فإن فن العمارة الإسلامية كان تحت تأثير الصينيين فى جهات التركستان التى استولى عليها الصينيون فنشأ أسلوب مزيج ، ظهر حتى فى بعض المساجد .

كل هذا يدل على أن القول بأن العالم الإسلامى « كان فى نوم عميق » قبل أن يأخذ فى النهوض بتأثير أوربا فى القرن التاسع عشر ، مبالغ فيه كثيراً .

---

(١) هذه الآثار أعظم من الآثار الأوربية المعاصرة ولا ريب . ولا توفيها حقها الجملة الغامضة التى كتبها المؤلف .

وحق أن الظروف الملائمة التى أنتجت الحضارة الإسلامية لم تبق . وقد اضطرت الدول الإسلامية فى هذا الزمن لأن تضع نصب عينيها فى الصف الأول ، الشؤون الحربية وترقية العناصر التى تؤهل الشعب لأن يكون موضع الثقة من حيث العسكرية ولو كانت مضرة من الوجهة المدنية . واضطرت الدولة العثمانية التى لم تكن فى البدء مرتبطة بالدين ارتباطاً كبيراً ، والتى كانت تحت تأثير الدرويشية الحرة — اضطرت إلى إحياء المآثر الإسلامية الحربية مراعاة للأحوال ؛ فرفع لواء الرسول الأخضر للمرة الأولى فى ميدان القتال فى الحروب الأوربية سنة ١٥٩٣[1] (وجد هذا اللواء بجوار دمشق ولكن لا نجد فى مرجع من المراجع القديمة شيئاً عن مثل هذا اللواء) ولم يكن ممكناً للدول فى هذه الظروف ألاّ تنصر رجال الدين على رجال العلم ؛ وتؤثر البرابرة أمثال الأرانطة والأكراد المحاربين على المزارعين وسكان المدن . وفى مثل الظروف المذكورة آذن مؤسس الدولة الصفوية فى إيران بجعل التشيع ديناً للدولة . فأمكنه أن يُظهر حروبه مع العثمانيين ، جيرانه فى الغرب ، ومع الأزبك جيرانه فى الشرق

---

(١) كان ذلك فى أواخر عهد السلطان مراد الثالث ابن السلطان سليم الثانى فى حربه مع المجر (١٠٠٢ هـ = ١٥٩٣ م) حيث نقل اللواء النبوى الشريف من دمشق الشام وكان محفوظاً بها منذ أن فتح السلطان سليم مصر . حمله منها إلى الآستانة انكشارية الشام ، ثم نقل من استانبول فى حراسة ألف رجل من الإنكشاريين إلى الجيش المحارب ببلاد المجر ، فأثار منظره الحمية فى نفوس المجاهدين الأبطال ، ولكنهم تعللوا بأنه لم يسبق أن شتا جيش المسلمين بعيداً عن السلطان ، وانضم إلى ذلك عودة أغا الانكشارية إلى استامبول ، والأرجاف بمرض السلطان ؛ فخيف من وقوع الخلل فى نظام الجيش .

(تاريخ سياسى دولة عثمانيه ، لكامل باشا ، استامبول ١٣٢٧ . جـ ١ ص ٣٠٥) .

فى صورة حروب دينية ؛ فبلغت المنازعة بين أهل السنة والشيعة منذ القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) شدة لم يشاهد مثلها فى القرون الوسطى ، فأخذ أهل السنة والشيعة يكفر بعضهم بعضاً معتمدين على رؤسائهم الدينيين . وصارت الشيعية المجادلة كياناً مقدساً لإيران . حتى نشاهد أحياناً أن السكة ضربت باسم إمام الشيعة المتوفى فى المشهد أول القرن الثالث الهجرى وذلك خلال أزمات السلطنة التى حدثت فى القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر) . وقد زاد نفوذ رجال الدين كثيراً فى إيران الرافضية ، فلقّنوا الشعب التعصب الدينى والمذهبى أقوى مما فى تركيا السنية .

ولكن كانت الحالة غير هذه على خط مستقيم فى الهند فى عهد الإمبراطورية المغولية الكبرى ؛ فقد تقدمت هذه الدولة على الدول الإسلامية الأخرى تقدماً كبيراً سواء فى الرفاه المادى أو السماح الدينى . وأما أسباب عجز المسلمين هنا على مزاحمة الأوربيين فى ميادين النشاط العملى فأمور أخرى ؛ فإن الامبراطورية المغولية الكبرى كانت دولة عظيمة مؤسسة على أصول شرقى آسيا ، وغنية من الوجهة المادية إلى درجة أنها لم تكن فى حاجة إلى الاتصال بالأجانب .

وقد كانت الشؤون الزراعية فى عهد المغول ، باعتراف الإنجليز أنفسهم فيما بعد ، أرقى منها بعد استيلاء الإنجليز عليها . ويرى الإنجليز أن خدماتهم التى قاموا بها للهند هى أنهم كفلوا لها تقدم التجارة البحرية ؛ فهم أنشأوا

مدناً ساحلية مثل كلكته و بومباى ومدراس وهى مدن لم تكن فى الهند القديمة ما يشبهها .

وبهذه الصورة انتقلت الأوّلية فى ساحة الحضارة من المسلمين إلى المسيحيين . وفى أوربا عُمل كل ما يفصل أساليب المعيشة عن حياة القرون الوسطى . واتجه انتشار الحضارة اليوم من الشمال إلى الجنوب ومن الغرب إلى الشرق خاصة . ولهذه الحال خطورة بالنسبة لأوربا الشرقية خاصة إذ قد تعينت بهذه الصورة واجبات روسيا أيضاً نحو الحضارة[1] . وقد كانت سواحل البحر الأسود الشمالية تابعة فى القرون الوسطى كما كانت فى القرون القديمة ، لسواحله الجنوبية سواء فى الحضارة أو فى السياسة . وفى القرن الثامن عشر نشأت مدن فى السواحل الشمالية لا يمكن مقارنة مدينة من مدن السواحل الجنوبية بها . وصلت الحضارة فى القرون الوسطى إلى شواطئ فولجا من بخارى وخيوه (خوارزم) ؛ وأما فى القرن التاسع عشر فتعرّف تتار فولجا بالأدب الأوربى بوساطة الروس ثم أخذوا فى تثقيف التركستانيين إخوانهم فى الدين .

---

(١) أراد بارتولد فى آخر كتابه إظهار وظيفة الدول الأوربية المستعمرة والدفاع عنها ؛ هذه النظرة السياسية البحتة التى ليست علمية ولا تاريخية فى شىء ، قد تكون طبيعية لعالم روسى ، وأما المثقفون من الترك والمسلمين فلا يقابلون مثل هذا الدفاع الذى تتذرع به الدول المستعمرة . إلا بأن ينظروا إليه متعجبين !

محمد فؤاد كوپريلى

فهرس

صفحة

المدخل

الفصل الأول

الشرق المسيحى وخطورته للإسلام

الفصل الثانى

الخلافة ومبدأ الحضارة العربية

الفصل الثالث

بغداد وازدهار الحضارة المتأخر

الفصل الرابع

الحضارة الإيرانية وتأثيرها فى الممالك الإسلامية الأخرى

الفصل الخامس

فتوح المغول وتأثيرها فى الحضارة الإسلامية

الفصل السادس

العالم الإسلامى بعد القرن التاسع

١٩٥٢/٣٤٠٤